الهاتف الأخير

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي

813 / 90563

ق 269 /القاضي ، رافد فرج حميد القاضي

الهاتف الأخير / رافد فرج حميد القاضي

ط1 :- بغداد : دار السرد ، 2026 .

176 ص ؛ 14 × 21 سم .

1- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع/ 1474 / 2026/المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

ISBN : 978-9922-8888-8-0

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

الأهداء

إلى ذلك الصوت الذي ترك في القلب رنينًا لا ينتهي...

فبعض الحكايات تبدأ بعد الهاتف الأخير...

إلى الرقم الأخير، الذي لم يكن يومًا احتمالًا عابرًا، بل كان قدرًا كُتب قبل أن نلتقي...

إلى من كانت البداية...ومن بعدها بدأت الحكاية...

أهديكِ روايتي : « الهاتف الأخير ».

نبض

لم تبدأ الحكاية بنظرة... بل برنينٍ خافت واختلافٍ صغير في الرقم الأخير...

في « الهاتف الأخير » تتقدّم الصدفة بخطواتٍ تشبه القدر وتُقال كلماتٌ جاءت متأخرة لكنها أصابت القلب في الوقت المناسب...

لقاءٍ وُلد من صدفة...

وحبٍّ نما بهدوء...

حين أجاب القلب نداءه الأخير...!

أبواب الصبر

حين يصبح الصبر لغة الحياة

منذ نعومة أظافر علي، لم تكن الأشياء تمرّ عليه كما تمرّ على الآخرين ، وكان العالم بالنسبة له سلسلة من أرقام خفيّة ، لا تُرى بالعين لكن يمكن الإحساس بنبضها في كل شيء ، عدد درجات السلم، تكرار دقات الساعة، تسلسل الأيام، وحتى المسافات بين الكلمات حين يتحدّث الناس...كلّها كانت تُشكّل نظامًا صامتًا يجذبه بلا تفسير.

لم يكن طفلًا إعتيادياً...بينما كان أقرانه يلهثون خلف اللعب والضجيج، كان علي يجلس في زاوية الغرفة، يراقب، يعدّ، ويُعيد العدّ...لم يكن شغفه بالأرقام نابعاً من حب الرياضيات وحدها بل من إحساس داخلي بأن الرقم لا يكذب، وأنه أكثر صدقاً من البشر أحياناً.

كان الرقم واضحًا، مباشراً، لا يناور، ولا يغيّر أقنعته ، كبر علي وكبرت معه هذه العلاقة الغريبة ، في المدرسة، لم يكن متفوقاً بالصراخ، بل بالهدوء ويعرف متى يتكلم، ومتى يصمت.

كان يرى في كل مسألة معادلة أخلاقية وفي كل خطأ رقماً ناقصاً يجب إصلاحه ولم يكن يبحث عن النجاح بقدر ما كان يبحث عن العدالة، حتى قبل أن يعرف إسمها وحين وصل إلى مفترق إختيار التخصص الجامعي، ظنّ الجميع أنه سيتجه إلى الرياضيات أو الهندسة، فذلك ما بدا منطقياً لطفلٍ عاش عمره محاطاً بالأرقام لكن علي أختار طريقاً آخر...طريقاً أكثر تعقيداً، وأكثر قسوة فقد إختار القانون.

لم يكن القرار مفاجئاً له ، بل كان إمتداداً طبيعياً لفهمه المبكر للعالم فالقانون، في جوهره، أرقام أيضاً : مواد، فقرات، مدد عقوبات تواريخ، وسنوات ، لكنه أرقام تمسّ البشر، وتُحاسبهم وتمنحهم فرصة النجاة أو السقوط ، في القانون، وجد علي المعادلة الأصعب : كيف توازن بين النص والإنسان، بين الحرف والروح.

في أروقة كلية القانون، تغيّر علي ولم يعد الطفل الذي يعدّ الأشياء، بل أصبح الشاب الذي يعدّ الاحتمالات.

كان يقرأ القوانين ليس كطالب يسعى للنجاح، بل كمحامٍ يولد ببطء ويتوقف عند الكلمات، يزنها، يشكّك بها، ويعيد تفسيرها وقد أدرك مبكراً أن الحقيقة لا تكون دائماً صريحة، وأن العدالة لا

تأتي وحدها، بل تحتاج من يجرّها من يدها وسط الفوضى ،سنوات الدراسة لم تكن سهلة.

علي واجه خيبات، صمتاً طويلاً، وأياماً شعر فيها أن القانون أضعف من الظلم، وأن النصوص أحيانًا تُكتب لتُكسر لا لتُطبّق لكن علي لم يتراجع وكان يؤمن أن لكل قضية رقمًا خفياً، لحظة فاصلة، كلمة ناقصة أو مكالمة لم تُجرَ بعد... قادرة على تغيير كل شيء وحين تخرّج، لم يكن ذلك اليوم مجرّد إحتفال جامعي بل كان تحوّلاً داخلياً ولم يحصل على شهادة فقط، بل على عبء أن يكون شاهدًا على قصص الناس، وأن يحمل أصواتهم حين تعجز حناجرهم وأصبح علي محامياً ليس بالصورة النمطية، ولا بالبدلة وحدها، بل بالوعي.

كان يستمع أكثر مما يتكلم، ويصمت أكثر مما يصرّح ويعرف أن كل قضية تبدأ غالباً بتفصيل صغير، شيء يُقال ، عرضاً رقم هاتف توقيت إتصال، أو مكالمة متأخرة...

وكان يشعر، أن الهاتف سيصبح يوماً ما شاهداً أخطر من أي إنسان ولم يكن يدري أن حياته نفسها ستنقلب يوماً على مكالمة واحدة لا تحمل رقماً عادياً، ولا صوتاً مألوفاً، ولا توقيتاً بريئاً.

مكالمة ستعيد ترتيب كل الأرقام التي آمن بها، وكل القوانين التي دافع عنها، وكل الصمت الذي ظنّه آمنًا، هكذا تبدأ القصة ،ليس بصوتٍ عالٍ، بل برنينٍ خافت...

لم يكن عليّ قد تجاوز الثلاثين من عمره، ومع ذلك كان الزمن قد رسم على وجهه خطوطًا أعمق من سنواته الفعلية ، كأن الحياة منذ اللحظة الأولى، قررت أن تمنحه سنيناً مضاعفة تُثقل روحه وتعلّمه قبل الأوان أن كل شيء هنا مؤقت، وكل شيء هنا قابل للفقدان...كبر علي قبل أن يعرف معنى اللعب بلا هدف، قبل أن يتعلم أن الضحك يمكن أن يكون طويلًا، وأن الصمت يمكن أن يكون ممتداً كنهارٍ بلا شمس.

كان يراقب العالم بعينٍ لا تُخطيء، عين لا تقرأ الأحداث فقط، بل تعدّها، تزنها، تقيسها، وتبحث في زواياها عن المعنى المخفي بين الأشياء البسيطة، بين ألوان السماء، بين وقع خطوات المارة، وبين تكرار الرنين الصامت للساعة في غرفته الصغيرة حيث لم تمنحه الحياة طفولةً عادية.

كانت أيامه الأولى كلوحة لم تُكتمل، ألوانها باهتة، لكنها تحمل مع ذلك تفاصيل دقيقة يعرفها هو وحده : البيت، الغرف

الشوارع، أصوات المطر، رائحة الأرض بعد الندى كل شيء كان بالنسبة له معادلة صامتة وفي كل حركة، في كل نفَس، كان يرى نمطاً، ترتيباً، خيطاً مرئياً للزمن يربط الأحداث بعضها ببعض وكانت القسوة موجودة منذ البداية، مثل ضوءٍ خافت يلتصق بالزوايا، يذكّره أن العالم ليس جميلًا دائماً، وأن الإنسان يحتاج إلى صبرٍ لا ينتهي، قوةٍ لا تُرى، وصمتٍ يفوق الكلام.

كبر علي محاطًا بأسئلة لم يجد لها إجابات ولم يعرف أحدٌ ما الذي كان يشعر به حين يراقب الناس من حوله يتأمل وجوههم، يحاول قراءة أفكارهم من زاوية شفاههم أو خفوت نظراتهم.

كانت له طريقة في الفهم، أعمق من الكلمات، أكثر دقة من أي درس، وأشد قسوة من أي عقوبة فقد كان يعرف أن كل شيء يُترك دون مراقبة، كل صمت يُهمل، كل وعد يُنسى، يتحوّل إلى لحظة يمكن أن تجرحه بلا إنذار.

ومع كل يوم جديد، كان يتعلم درساً إضافياً : عن الصبر الذي لا يعرف نهاية، عن القوة التي تنشأ في داخلك حين يجدك الزمن وحيدًا، عن الرحمة التي قد تختبئ خلف أقسى الظروف، وعن الألم الذي قد يكون أصدق دليل على الحياة نفسها.

كان يتعلم أن كل لحظة تمرّ، كل كلمة تُقال، كل صمت يُصان هي جزء من معادلة أكبر، معادلة لا تظهر إلا لمن يعرف النظر بعمق، لمن يعرف العدّ بلا عجلة، ويعرف التوقف أمام الأشياء الصغيرة كما يقف أمام المحاكمات الكبرى ، ثم جاء اليوم الذي إختار فيه القانون الذي لم يكن إختياراً عاطفياً، ولم يكن مجرد طريق مألوف، بل كان إمتداداً طبيعياً لكل هذا الفهم المبكر للعالم ، فالقانون، في جوهره، أرقام وفقرات ومواد، لكنه أكثر من ذلك: يلتقي بالإنسان، يحاسبه، يضعه أمام نفسه، ويمنحه فرصة للحقيقة أو يجرده منها.

هناك، في أروقة كلية القانون، بدأ علي يرى نفسه في مرآة أكبر يرى احتمالات الحياة كلها أمامه، يرى تفاصيل صغيرة يمكن أن تُغير مصير أحدهم إلى الأبد...تعلّم أن العدالة ليست مجرد نصوص مكتوبة ، بل قوة تحتاج إلى قلبٍ واعٍ، إلى عينٍ حادة، إلى روحٍ تعرف أن الصبر أحياناً أقوى من الهجوم، وأن الاستماع أحيانًا أهم من الكلام.

مرت السنوات، وحملت معه دروساً أكثر قسوةً ،واجه خيبات شهد ظلماً بلا سبب، رأى القلوب تذوب أمام المصلحة، واستمع

إلى كلمات تُقال بحرفٍ خفي، لكن صداها يبقى طويلًا في الذاكرة وكل مرة كان ينجو، كان يكتسب شعوراً غريباً : أن الحياة لا تمنح أحداً أي شيء مجانًا، وأن كل لحظة، كل ابتسامة، كل دمعة، لها وزنها، لها أثرها، لها رقمها الخفي الذي لا يُرى إلاّ لمن يبحث عنه بعينٍ صافية ، ثم جاء ذلك الشعور: بأن شيئاً ما حدث : حادثة واحدة ، مكالمة، رقم ، لمسة ، قادر على قلب كل ما بناه في داخله، على تحدي كل المعادلات التي عرفها وعلى إثارة كل الأسئلة التي حاول تجاهلها وهنا، عند هذا الحد كان علي على أبواب مرحلة جديدة من حياته، مرحلة لا تعرف الرحمة، لكنها تعرف كيف تختبر القوة الحقيقية للإنسان، كيف تكشف معادن النفوس...؟

وكيف تُعيد ترتيب كل ما اعتقد أنه ثابت...؟

وهكذا، في هذه اللحظة، وقفت المدينة على أطراف الليل والسماء غارقة في لونٍ داكنٍ كخدعةٍ من الظلال، والهواء يحمل صمتًا ثقيلًا يشبه الانتظار،والشارع يهمس بخفوت، أضواء المصابيح تتلألأ على الأسفلت الرطب، وكأنها تقرأ همسات المارة الغائبين، والأوراق على مكتب علي تتناثر برفق، كما لو كانت

نجومًا صغيرة هبطت من السماء لتجلس لحظةً بين أصابعه فكل شيء يبدو ساكنًا، متحجّرًا في هدوءٍ غريب، إلاّ الهاتف، الذي كان موضوعًا هناك، صامتًا، يبدو عادياً بلا حراك، لكنه يحمل في صمته احتمالًا أكبر من أي قصة سُمعت من قبل، كأنه ينتظر من يجرؤ على كسره ، ورنينه لم يكن بعيدًا، ولم يكن مفاجئًا، لكنه كفيل بأن يقلب عالم الصمت رأسًا على عقب، يفتح أبواب لحظاتٍ لم يُكتب لها موعد، ويهمس بأن ما هو عادي قد يكون بوابةً لمغامرةٍ لم يتخيّلها أحد ، فكم من صباحٍ بدأ كأيّ صباح، بلا إشاراتٍ لافتة ولا ارتجافٍ في الأفق، ثم انحرف بخطوةٍ عن مساره المعتاد، ليقود القلب إلى دربٍ لم يكن في الحسبان ، وإن التفاصيل التي نظنّها هامشية — نظرة عابرة، كلمة قيلت بلا قصد، لقاءٌ قصير في زاوية يومٍ مزدحم — قد تكون بذورًا صامتة لقصصٍ تكبر في الخفاء، وتتشعّب جذورها في الداخل حتى تغيّر شكل الروح ، هو ذلك الإحساس الخفيّ الذي يتسلّل إلينا دون استئذان، فيجعلنا نتوقّف لحظةً أمام ما اعتدناه، كأننا نراه للمرة الأولى ، الشارع ذاته، الوجوه ذاتها، الأصوات نفسها، لكنها فجأةً تلمع بمعنى جديد، كأن العالم قرّر أن يكشف طبقةً أخرى من

نفسه ، هناك، في المسافة بين الاعتياد والدهشة، تولد القصص الحقيقية؛ ليس تلك التي تُخطّط بعناية، بل التي تُفاجئنا فنجد أنفسنا جزءًا منها دون أن نعرف متى بدأنا.

وما هو عادي ليس عاديًا تمامًا؛ إنه ستارٌ رقيق يخفي خلفه احتمالاتٍ لا تُحصى ، كلّ يوم يحمل في طيّاته احتمال التحوّل وأن يتبدّل اتجاه القلب، أن يتغيّر فهمنا لأنفسنا، أن نكتشف في داخلنا قدرةً على الشعور لم نكن نعلم بوجودها ، وكأن الحياة تضع أمامنا أبوابًا صغيرة، غير لامعة، بلا زخرف، لكنها تقود إلى مساحاتٍ واسعة من التجربة والنضج والحنين.

قد تبدأ المغامرة بخطوةٍ متردّدة، أو بفضولٍ بسيط، أو حتى بسؤالٍ عابر ، لكنها ما إن تبدأ حتى تتكاثر الأسئلة، ويتحوّل التردّد إلى شغف، والدهشة إلى رغبةٍ في الاستمرار ، ويصبح الطريق، مهما كان مجهولًا، أكثر صدقًا من البقاء في منطقة الأمان ، فالمغامرات الحقيقية لا تصرخ لتُعرَف، بل تهمس أولًا، ثم تختبر شجاعتنا في الإصغاء ، وهكذا، بين نبضٍ هادئٍ وآخر متسارع، ندرك أن الحياة لا تحتاج دائمًا إلى أحداثٍ استثنائية لتُدهشنا؛ يكفي أن ننتبه لما يمرّ بنا، ولما يتسلّل بين تفاصيلنا اليومية.

أوركسترا الأزقة

أنغام الخطوات بين جدران المدينة

مع أول خيوط النهار، حين تتسلل أشعة الشمس الأولى بين المباني القديمة، يخرج علي من داره ، يرفع ربطة عنقه بعناية ويحمل حقيبته الجلدية، التي تفوح منها رائحة جلد مستعمل وذكريات لا يبوح بها أحد ، ويمشي بخطوات هادئة لكنها محسوبة وكأن كل خطوة لها وزنها الخاص، وكل حجر في الطريق يعرف أنها تمرّ عليه في الأزقة المبللة بندى الصباح، تلمع الحجارة كما لو كانت مرايا صغيرة تعكس ضوء الشمس الأول، تعكس نصف العالم وتخفي نصفه الآخر، تماماً كما يشعر علي أحياناً أنه يعيش بين النصف المرئي من حياته والنصف المخفي خلف صمت الأيام يستمع إلى وقع أقدامه على الحجارة القديمة، صوتاً يملؤه طمأنينة غريبة، يشبه نبض قلب يعرف طريقه في الظلام، وصوت يذكره بأن كل شيء له بداية، وأن كل بداية يمكن أن تتحول إلى رحلة طويلة ، يرافق ذلك صوت الماء المتسلل من مصارف الشوارع، مياه صغيرة تتدفق

بلا توقف، صامتة لكنها حية، تشبه أفكار علي التي لا تهدأ وتستمر في الدوران داخله بلا كلل.

تتسلل رائحة الشاي المخدر على الفحم والقهوة المحمصة من المقاهي الصغيرة إلى أنفه ، رائحة تجمع بين الألفة والغربة ، بين الحنين واللذة، بين العطر الذي يوقظه وذكريات جلسات لم تُنسَ بعد، يمشي علي ببطء، كأنه يقرأ المدينة كما يقرأ صفحة مكتوبة منذ سنوات، كل زاوية تحمل قصة،كل باب مفتوح يهمس بإسمه كل نافذة مغلقة تخفي شيئاً لا يعرفه.

يمر على أبواب المقاهي، حيث يجلس الرجال والشباب يراقبون الشارع ويحتسون الشاي او القهوة بهدوء بعضهم يقرأ الصحف بعضهم يتحدث بصوت منخفض، وبعضهم يكتفي بالنظر إلى الناس كأنهم يقرأونهم قبل أن يقرؤوا أنفسهم ، يرى علي الألوان الباهتة على الجدران القديمة، الطباشير الذي كتب عليه أحد الأطفال عبارة غير مفهومة ، رائحة الخبز الطازج تنبعث من فرن صغير في زاوية أحد الأزقة، مزيج من رائحة الخبز والدخان، وكأنها تذكره أن الحياة تستمر مهما كانت الظروف قاسية.

الهواء بارد قليلاً، لكنه نظيف، يحمل معه صوت طائر بعيد يعلن بدء النهار، وصدى خطوات بائعة الخضار التي بدأت تضع سلالها أمام أبواب المحلات، وكأنها رسالة صامتة تقول : « اليوم يبدأ...والوقت يمضي... ».

يمر علي على مكتبة صغيرة قديمة، يلمس بيده الزجاج البارد للواجهة، يطل على الكتب المكدسة بعناية، بعضها مستعمل بعضها جديد، كلها تحمل قصصًا لم تُروى بعد ، يشعر فجأة بحاجة غريبة للسكوت، للجلوس، وللإنغماس في عالم مختلف عن العالم الذي يمشي فيه، عالم أكثر هدوءاً، أكثر ترتيباً أكثر قابلية للفهم ، لكنه يعرف أن الوقت لا ينتظر، وأن عليه أن يصل إلى مكتبه، إلى الملفات، وإلى الهاتف الذي ربما يحمل معه اليوم بداية جديدة أو نهاية غير متوقعة.

يتوقف لحظة عند زاوية الشارع، ينظر إلى الضوء الذي يلقي بظلاله على جدران المباني، يرى انعكاس الشمس على النوافذ والأرض، ووجوه المارين، ويبتسم ابتسامة صغيرة لا يراها أحد إبتسامة يعرف هو معناها: أن كل يوم جديد يحمل معه فرصة حتى لو كانت فرصة صغيرة، فرصة لفهم الحياة أكثر، لفهم الناس

أكثر، لفهم نفسه أكثر ، يمضي علي في خطاه، كل خطوة تأخذه إلى ما لا يعرفه، وكل نفس يملأ رئتيه بالهواء البارد ينبهه أن هذه المدينة، بكل أصواتها وروائحها وألوانها ، ستظل شاهدة على رحلته على مكالماته ، على صمته، وعلى كل ما سيكتشفه لاحقاً... وفي نهاية الأزقة، حيث تنفتح الشوارع الرئيسية، يشعر علي بثقل حقيبته في يده ، بثقل المسؤوليات التي تراكمت داخله، لكن أيضاً بشعور غريب بالتحرر.

كل خطوة تقربه من مكتبه هي خطوة تقربه من يوم آخر مليء بالفرص، بالمواجهات، بالقرارات التي ستعيد ترتيب كل شيء وكل ذلك، قبل أن يسمع الرنين... الذي سيقلب يومه رأساً على عقب ، فكل شيء حوله كان يحكي قصة، وكل زاوية من الأزقة وكل نافذة قديمة، وكل حجر موغل في الشارع، كان يحمل ذكرى لا يعرفها أحد إلاّ نفسه.

كان علي يقرأ المدينة بعينين لا تخطئان، عينان صاغتهما سنوات المراقبة، سنوات الصمت، سنوات التعلّم على فهم ما لا يُرى.

ولم يكن مجرد النظر إلى الوجوه كافياً بالنسبة له؛ كان يرى أعماقها كما يرى الغواص الأعماق المخبأة تحت سطح البحر، يلمس

التيارات المخفية ويشعر بحرارة العواصف الخفية بين سطور الوجوه كان يعرف من يخفون خوفهم خلف إبتسامة،ومن يصرخون في صمتهم، ومن يحملون أملًا صغيراً يتشبثون به كطفل يبحث عن حضن أم.

الشارع بالنسبة له ليس مجرد مكان يمرّ به، بل نصوص مكتوبة على الحائط، على الحجارة، على أبواب المحلات ، والخطوط المشقوقة على الجدران، الطلاء المتقشر، بقايا الملصقات القديمة... كل شيء كان رسالة من الزمن، تروي له ما حدث وما لم يُقال وما يختبئ بين الكلمات المنسية ، وحتى الأصوات لم تكن مجرد ضوضاء كانت له نغماتها الخاصة : وقع خطوات المارة، صدى المكالمات الهاتفية التي تتناثر من نوافذ منازل مجاورة، همس الباعة المتجولين ، صدى المزامير القديمة من إحدى المقاهي، كل هذه الأصوات كانت بالنسبة له مثل أوركسترا سرية تعزف لحن المدينة المجهول ، ووسط هذا الخليط من الروائح والضوء، والصوت، كان يشعر بأن المدينة حيّة ، ليست مجرد جدران وأسلاك وأنابيب، بل كيان يتنفس، يراقب، يعرف كل حركة، وكل قرار، وكل تفكير يمرّ في ذهنه.

كل شيء حوله كان جزءاً من مخططه الداخلي لفهم البشر، لفهم العالم الذي يعيش فيه، ولإشباع حاجته العميقة للشعور بأن الحياة ليست مجرد صراع، بل تجربة يمكن أن تكون غنية وجميلة، حتى وسط الفوضى.

كان يلاحظ كيف تتشابك التفاصيل الصغيرة في حياة الناس: نظرة سريعة، كلمة عابرة، حركة يد، إبتسامة خجولة، دمعة خفية...كل هذه الأشياء كانت تُكوّن لديه صورة أوسع، لوحة كاملة، يُمكنه من خلالها قراءة المدينة كما يقرأ كتاباً لم يكتب بعد وكل وجه كان بالنسبة له فصلاً، كل حوار لم يسمع بعد كان فقرة وكل صمت كان فقرة مكتملة بالمعنى.

كان يشعر أحياناً أن الحياة نفسها تشبه هذا الشارع، مليئة بالتفاصيل التي لا يراها معظم الناس، مليئة بالفرص الخفية بالعثرات الخفية، بالمفاجآت غير المتوقعة، وبالعلاقات المعقدة بين الأشياء التي يظن الجميع أنها عشوائية، لكنها في الحقيقة تتبع نسقًا دقيقاً، كما لو أن العالم كله عبارة عن شبكة معقدة من الروابط المرئية وغير المرئية، والشخصيات التي تحيط به ما هي إلا عقد في هذه الشبكة، تتحرك، تتفاعل، تتغير، وتترك أثرها، ثم تختفي.

كان علي، كما شعر بنفسه، واحدًا من هؤلاء العقد، لكنه عقدة واعية، يراقب، يقرأ، يحلل، يفهم، ويحاول أن يربط كل التفاصيل ببعضها، ليصنع من الحياة نفسها خريطة يمكن أن تفهم ، وفي كثير من الأحيان، كان يتوقف عند زاوية معينة، يلتفت إلى نافذة مفتوحة، ينظر إلى شخص يمرّ في الشارع ، يراقب الطريقة التي يمشي بها، الطريقة التي يرفع بها رأسه، الطريقة التي تتساقط بها خيوط الضوء على وجهه...ثم يبتسم إبتسامة صغيرة، يعلم أنها لحظة كشف صغيرة، لم يُلاحظها أحد، لكنها أضافت فصلاً جديداً إلى كتاب المدينة الذي يحمله بداخله.

كانت الأزقة بالنسبة له مثل صفحات مفتوحة، كل صفحة تحكي فصلًا من حياة مجهولة، كل حجر، كل باب، كل نافذة، كل رائحة، وكل صوت...وكل شيء كان يروي له شيئًا، يضيف إلى فهمه للعالم وللبشر، يملأ الفراغات التي لا يعرفها أحد سواه ،وكان يشعر في هذه اللحظات أنه أقرب إلى الحقيقة، أقرب إلى معنى الوجود، أقرب إلى اللحظة التي يمكن أن يفهم فيها كيف تُكتب الحياة بالفعل، وكيف تُقرأ، وكيف يُمكن أن يتحرك المرء داخلها دون أن يفقد نفسه أو يضيع بين تفاصيلها المتشابكة وبينما كان

يمشي، يستمع إلى وقع خطواته على الحجارة المبتلة بندى الصباح كان يشعر أن كل خطوة هي درس، وكل خطوة هي سؤال، وكل خطوة هي فرصة لإعادة ترتيب فهمه للعالم وللتأكد أن ما يراه في وجوه الناس، في الشوارع، في المباني، في الضوء، في الظلال...كل شيء له معنى، كل شيء يحمل قصة وكل شيء يمكن أن يكون بداية لفصل آخر من حياته أو حياة أي شخص آخر.

كان، رغم كل هذا، يشعر بأن شيئاً ما، شيئاً غامضاً وخفياً يترقبه من خلف كل نافذة ، من خلف كل باب، من بين كل حجرة يراقبه، يختبره، يضعه أمام أسئلة لم تُجب بعد، أسئلة يمكن أن تغير مساره كله...

وهكذا تمضي خطوات علي في المدينة، في صمتها الذي يحمل أصداء الحياة الخفية، في ضوءها الذي ينساب على الأرصفة كخيوط من ذهبٍ باهت، في أصواتها المتشابكة بين صرير السيارات وهمسات المارة، بين خرير الماء في النوافير وبحة العصافير المتأخرة عن الصباح ، وفي كل ما يمرّ به، في كل زقاق، كل شارع وكل حارة، محمّلاً بكل القصص التي لم تُروَ، بكل الأحلام التي لم تُحقق، بكل الخيبات التي تركت أثرها في قلبه، وكل الآمال التي

تتشبث بالمستقبل كأوراق خضراء على شجرة قديمة ، يمشي علي بخطواته الهادئة، مستشعرًا نبض المدينة، مستعدًا لأن يلتقط الوجوه المارة، الابتسامات العابرة، الكلمات المنسية، وأن يكتشف ما سيأتي، وما يحمل له القدر من مفاجآت، من لقاءات، ومن لحظاتٍ تغير كل شيء في ثانية واحدة ، وكل خطوة له، مهما بدت صغيرة، هي جزءٌ من رحلةٍ أعمق، رحلةٍ لا تُقاس بالمسافات بل بالتحوّلات الخفيّة التي تحدث في الداخل، رحلةٍ لفهم العالم لا كما يبدو في واجهاته الصاخبة، بل كما يتجلّى في تفاصيله الصغيرة، في الوجوه العابرة، في اللحظات التي تمرّ سريعًا لكنها تترك أثرًا طويلًا في القلب. رحلةٌ لتفهّم نفسه بين ضوضاء المدينة وسكونها، بين الضوء والظل، بين ما مضى وما ينتظره في الأفق كان يشعر أنّ المدينة ليست مجرد أبنيةٍ وطرقات، بل كائنٌ حيّ يتنفس معه، يختبر صبره، يعلّمه الإصغاء، ويدفعه لأن يرى ما كان يغفل عنه في ازدحامها كان يكتشف هشاشته، وفي هدوئها كان يلامس قوّته. بين صوت السيارات ووقع الأقدام، وبين لحظات الفجر الأولى حين يتسلّل الضوء خافتًا، كان يدرك أنّ الرحلة

الحقيقية لا تدور حول ما يحدث خارجه، بل حول ما يتشكّل في أعماقه.

كلّ ما مضى لم يعد مجرد ذكرياتٍ مبعثرة، بل صار دروسًا صغيرة تُعيد ترتيب نظرته إلى الأشياء ، أخطاؤه لم تعد عبئًا، بل علاماتٍ على الطريق، وحنينه لم يعد ضعفًا، بل دليلًا على أنّ قلبه ما زال حيًّا، قادرًا على الشعور، على الانتظار، وعلى الإيمان بأن القادم يحمل معنى، حتى لو تأخّر ظهوره.

وكان الأفق بالنسبة إليه ليس خطًا بعيدًا فحسب، بل وعدًا مفتوحًا، مساحةً لاحتمالاتٍ لم تُكتب بعد ، يمشي نحوه بخطواتٍ هادئة، لا يسابق الزمن، ولا يخشاه، كمن تعلّم أن الرحلة نفسها هي الغاية، وأن فهم العالم يبدأ حين يجرؤ الإنسان على أن يفهم ذاته، وأن يصالحها، وأن يمنحها فرصةً أخرى لتكتشف، وتخطئ وتحلم من جديد.

نوافذ الروح

العيون تكشف الأسرار

يقع مكتب علي للمحاماة ، مباشرة مقابل المحكمة ، كان كمرآة للعالم بأسره ، ومن نافذته كان يراقب الداخلين والخارجين، يرى نظرات الأمل واليأس، يرى خوف الأطفال وألم الأمهات، يرى المتهمين يحاولون إخفاء إرتعاش أصابعهم، يرى المحامين المنافسين يتبادلون النظرات الصامتة قبل كل جولة قانونية.

كل شيء هناك كان يسجله في ذاكرته كما لو كان لوحة فنية تفاصيل دقيقة لن يعرفها أحد سواه ، فقد كان علي يعيش بين عالمين متوازيين في عالم المحاماة، حيث الأوراق أثقل من القلوب والقوانين غالباً لا تصنع العدالة بل تحمي الأقوياء، كل قضية كانت أختباراً لصبره وقوته، كل جلسة كانت صراعًا بين الحق والباطل، وكل حكم كان يترك أثرًا في قلبه يذكره بأن العالم ليس دائماً مكاناً لطيفاً ، وفي المقابل، كان هناك عالم آخر، عالم الحرية المطلقة، عالم الشعر والرسم والكتابة ، وفي هذا العالم، كان علي يكتشف نفسه، يطلق صوته، يترك لألوانه أن تتحدث، ولحروفه أن

تغني وكان يجلس أمام لوحاته، يراقب الألوان وهي تتدفق، كأنها تعكس حالة روحه، كل لون يحكي عن شعور، كل فرشاة تحكي عن فكرة، كل لوحة كانت نافذة تطل على أعماق روحه، على الصراعات التي يخفيها عن الجميع، على أحلامه التي لا يعرفها أحد غيره ، أما الشعر، فكان لغة أخرى للحياة بالنسبة له مساحة ينقش فيها أفكاره، يمتص بها الألم، يعانق به الفرح، ويجد فيها الحرية المطلقة كان يكتب عن المدينة، عن الناس، عن المحكمة عن الوجوه التي يلتقيها، عن أصوات المطر على الأرصفة، عن صمت الليل ووهج القمر على النهر، عن أحلامه الصغيرة، وعن كل ما يختبئ في قلبه.

أحياناً كان يكتب أبياتاً قصيرة تخرج من قلبه في لحظة واحدة وأحياناً كان يغوص في قصائد طويلة، ممتدة، تأخذ شكل نهر من الكلمات، تتدفق بلا توقف، تحمل كل مشاعره، كل هواجسه وكل صراعاته الداخلية ، وكل يوم يبدأ علي بمراجعة الملفات القانونية، قراءة المستندات دراسة القوانين، تحضير المرافعات واستقبال الموكلين ويلتقي أناسًا يأتون إليه بأمل ضائع، يبحثون عن من يسمعهم بلا حكم مسبق عن من يقف إلى جانبهم، عن من

يمنحهم شعوراً بأن العدالة ليست مجرد حلم بعيد فكل قضية تحمل معها درساً جديداً عن البشر، عن الطموح، عن الغضب، عن الخيانة، وعن الحب الذي يظهر في أصغر التفاصيل عن الألم الذي يختبئ خلف كل كلمة غير منطوقة وبعد ساعات طويلة في المحكمة، يخرج علي إلى الشوارع المزدحمة يمر بين الناس، يسمع أصواتهم، يراقب خطواتهم، يرى المارة الذين يندفعون في عجلة الحياة، والباعة الذين يصرخون بأعلى صوتهم لجذب الزبائن والباعة الصغار الذين يركضون بين الأرصفة كأنهم يمارسون لعبة الحياة المبكرة.

كل مشهد صغير كان يلتقطه بعينه كما لو كان جزءاً من لوحة كبيرة يريد رسمها لاحقاً على دفتره أو على لوحة فارغة في غرفته وفي المساء، عند عودته إلى منزله، كانت الغرفة الصغيرة تنتظره كملاذ آمن.

يجلس أمام دفتره، يحمل القلم، ويبدأ في كتابة ما لم يستطع قوله طوال اليوم والكلمات تتدفق ببطء، أحياناً تتوقف أحياناً تتسارع تعكس كل مشاعر اليوم: الصراع، الحزن، الفرح الأمل، الألم الغضب، الحب الوحدة، الحرية ، في هذا المكان، لا توجد محكمة

ولا أوراق قانونية، ولا ضغوط اجتماعية ، هناك فقط هو والكلمات، والصوت الداخلي الذي يحرره من ثقل العالم الخارجي وكانت هناك أيضاً اللوحات، الألوان، الطلاء، الفرشاة، الصمت الممتد، الذي يغمر الغرفة ويحتوي كل شيء.

كل لوحة كان يرسمها كانت انعكاسًا لما يشعر به، كل خط، كل لون، كل نقطة، كانت صرخة صامتة عن الحياة التي يعيشها، عن الحرية التي يحلم بها، عن الهدوء الذي يفتقده ، وفي كل ليلة، بعد أن تنتهي أعماله، يخرج علي إلى النهر الذي يمر عبر المدينة يقف على الضفة، يراقب انعكاس الأضواء على الماء يسمع خريره المتواصل، ويترك الأفكار تتسرب إلى ذهنه بلا ترتيب، بلا قيود وبلا ضغط ، هناك، وسط صمت الليل، كان يجد الكلمات التي يكتب بها شعوره، كان يرى في حركة الماء انعكاساً لحياته المتغيرة، كان يرى في النجوم فوقه كل أحلامه، كل أمنياته كل قصصه التي لم تُروَ بعد حتى في أحلامه الليلية، كان علي يعيش بين عالميه يحلم بمحكمة تتسع لكل الناس، حيث العدالة ليست حكراً على الأقوياء، ويحلم بلوحات تمتلئ بالألوان التي لا حدود لها، وشعر يكتب نفسه بلا قيود ، وكان قلبه يتأرجح بين الواقع والخيال، بين

ما يجب عليه فعله وما يريد أن يفعله، بين الصبر والقوة والحنين والفرح ، هكذا أستمرت أيام علي، طويلة ومليئة بالتحديات لكنها مليئة بالإكتشاف بالإستهلالات الصغيرة للحرية، وبحياة داخلية غنية لم يعرفها أحد.

كل يوم كان يحمل درساً جديداً، كل لقاء كان يحمل فكرة جديدة، وكل ورقة، وكل قلم، وكل نظرة، كانت جزءاً من شخصيته، جزءاً من رحلته، جزءًا من فهمه العميق للحياة، قبل أن يصل إلى أي مكان، قبل أن يلتقي أي شخص، قبل أن يكتب أي كلمة في دفتره الخاص وعندما يغلق دفتره أخيراً، ويطفئ الضوء، يبقى علي مستلقيًا على سريره، يفكر في كل شيء: المحكمة، الناس، المدينة، الألوان الكلمات، اللحظات الصغيرة التي صنعت يومه ، ويعرف أنه سيبدأ غدًا نفس الرحلة، نفس الدوامة لكن هذه الدوامة هي ما أعطته القوة، هي ما جعلته يفهم الحياة كما هي ما جعلته يعيش بين عالمين دون أن يضيع، دون أن ينكسر دون أن يفقد صوته الحقيقي ، وفي ذلك اليوم، بدا كلُّ شيءٍ ثابتاً، وكأن الزمن قرّر أن يجلس على كرسي خشبي قديم يراقب المشهد دون تدخّل.

الهاتف الأرضي يرنّ منذ الصباح الباكر، رنّةً متواصلة تشبه طرقاتٍ متكرّرة على باب العقل، لا تترك فرصة للتفكير خارج العمل الناس يعرفون اسمه قبل أن يعرفوا وجهه، ينطقون بأسم « الأستاذ عليّ » بثقة، كأن الإسم وحده كافٍ ليمنحهم الطمأنينة، وكأن الوجه تفصيل زائد لا ضرورة له.

الأوراق تتراكم على المكتب كما تتراكم الأيام : ملفات فوق ملفات، تواريخ متشابهة، توقيعات، أختام، وأحكام مؤجّلة، حتى بات يشعر أحياناً أن حياته نفسها ملفّ مفتوح، لم يُكتب في نهايته شيء بعد ، وكان كل شيء يسير وفق إيقاع معتاد، إيقاع يعرفه جيداً، بل يحفظه عن ظهر قلب؛ صباح يبدأ بالهاتف، نهار يضيع بين المرافعات، ومساء يعود فيه مثقلاً بما سمعه ورآه ، ولم يكن يتوقّع أن يكون صباحاً عادياً، بلا أي نذرٍ إستثنائي سيحمل له بداية فصل لم يكن في حسبانه، فصل لم يطلبه، ولم يخطّط له لكنه كُتب له على أي حال ، فقد كانت الشمس تتسلّل بخجل من بين نوافذ غرفته، تضيء الغبار الذي يرقص في الهواء وكأن المدينة نفسها تتنفس ببطء، مترددة بين النوم والاستيقاظ ، واستمع إلى صدى خطواته على الأرضية الخشبية

كأن كل خطوة تُخبره بأن شيئاً ما على وشك التغير ، وقلبه، رغم هدوء المكان، بدأ ينبض بسرعة خفية، ينبض بإحساس غامض لا يستطيع تسميته بعد، شعور بأن هذا الصباح يحمل معه أسئلة لم تُطرح، ولقاءات لم تُرتب، وذكريات ستولد من بين تفاصيله الصغيرة.

كان علي يقف عند النافذة، ينظر إلى الشارع الذي بدأ يمتلئ بالحياة تدريجياً، السيارات تتهادى، والأشجار تتحرك مع نسيم رقيق، والأصوات تتقاطع في لحن يومي مألوف لكنه الآن يبدو مختلفاً، كما لو أن المدينة كلها تعرف أن شيئاً جديداً بدأ للتو أحسّ أن هذا الصباح لم يكن مجرد بداية ليوم، بل بداية لشيء أعمق، شيء سيقلب داخله شيئاً لم يعرفه من قبل، ويدفعه إلى مواجهة ما لم يجرؤ على التفكير فيه.

نبض الأرقام

الأرقام ترسم خريطة الروح

دخل علي باحة المحكمة مسرعاً، يحمل ملف قضية شائكة جداً ملفًا يعرف أنه سيستنزف كل طاقته وتركيزه، ملفاً سيجعل عقله يسبح في بحر من المواد القانونية والفقرات الدقيقة، يحاول التنبؤ بكل إحتمال خسارة، ربح، مفاجآت غير متوقعة، كلمات قد تُحوّل الحسم في أي لحظة ، وكانت خطواته سريعة، لكنها محسوبة كل خطوة لها وقعها على الحجارة الباردة للممرات، صدى يرنّ في قلب المحكمة، كأنه إيقاع قلبه نفسه، يرافقه، يذكره أن كل ثانية لها وزنها، وكل لحظة تحمل قراراً...

كان علي يشعر بثقل الملف في يده، وبثقل العالم كله فوق كتفيه كأن الملف ليس مجرد أوراق، بل قطعة من الزمن نفسه، ورمز لكل شيء مرّ به، لكل المعارك الصامتة التي خاضها، لكل اللحظات التي فشل فيها، ولكل المحاولات التي لم تُكلل بالنجاح وفجأة...سمع خلفه صوتاً ناعماً، رقيقاً ، لا يرفع صوته، لكنه كافٍ ليخترق كل الضجيج المحيط، ليخترق طبقات صوته

الداخلي، ليخترق عقله الذي كان غارقاً في المعادلات القانونية ويجبره على التوقف انه صوت فتاة...

-قالت الفتاة...

- مرحباً استاذ... هل أنت الأستاذ علي؟

توقف ، ولم يكن التوقف حركة جسدية فقط ، بل توقف داخلي توقّف الروح، توقف الزمن في داخله، كأن كل التفكير كله ضغط على زرّ الإيقاف المؤقت ، حركة الهواء حوله كادت تتباطأ، صدى أصوات المراجعين في المحكمة بدأ يتلاشى تدريجياً، كل شيء في المكان أصبح خافتاً كما لو أن الحياة نفسها توقفت لتراقب ما سيحدث.

- قال بهدوء، بصوت آلي قليل الإنفعال لكنه خافت بالمقدار الذي يخفي الإهتزاز الداخلي:

- نعم...

لكن الزمن، في تلك اللحظة، لم يكتفِ بالتوقّف... بل بدأ يبطئ إيقاعه احتراماً لما سيحدث، كأنه ينسّق كل ثانية لتكون هذه اللحظة كاملة، دقيقة ، لا تُنسى، كما لو أن الكون كله تراجع

خطوة إلى الوراء، تاركاً له مكاناً واحداً ليلاحظ، ليشعر، ليختار أن يتفاعل أو يظل صامتاً..

-ألتفت عليّ، وإذا بالمشهد يكتمل أمامه دفعة واحدة ، حيث كانت تقف هناك، أمامه، فتاة لم يرَ مثل نقائها من قبل، لم يلتقِ بمثل صفائها في أروقة المحاكم، في إزدحام المدينة، في صخب الحياة اليومية ، لم يكن جمالها صاخباً، ولا ملفتاً بمعناه السطحي، بل جمالاً هادئاً مستقراً، يشبه الأشياء الصغيرة التي تمرّ أمامك بلا انتباه: شعاع الضوء على ورقة، صوت خافت في زوايا الشارع نسمة هواء تمرّ بلا أثر، ثم فجأة تدرك أنها تركت أثرها في قلبك وأنك لا تستطيع نسيانها.

كانت نظرتها متعمقة، لا مجرد لقاء عابر، بل كأنها تقرأه ببطء تحاول الإمساك بكل شيء فيه، بكل حركته، بكل توتره، بكل صمته، بكل تفكيراته غير المعلنة.

كان في عينيها شيء مختلف عن كل ما عرفه عن الناس: قوة هادئة، وهدوء قوي، واهتمام خفي، وفضول صامت ، شعر علي فجأة بأن كل ما أعتقد أنه يعرفه عن البشر، عن الحياة عن

الصدفة، بدأ ينهار، وأن هناك عالماً جديداً يفتح أمامه، عالماً لا يمكن تجاهله، مهما حاول.

لم يكن يعرف ما تقول، وما ستفعل، أو حتى ما إذا كان سيقول شيئاً، لكنه شعر كما لو أن كل الأوراق في ملفه الثقيل، وكل صيغ القانون، وكل تفاصيل القضايا، قد تحولت إلى خيط رفيع يربطه بهذه اللحظة، مع هذه العينين، ومع هذا الصمت الذي كان أكثر كلامًا من أي كلمة يمكن أن تُقال.

المحكمة حوله، الضجيج المعتاد، صدى الأقدام، خرير الأقلام همسات الزملاء، كل ذلك بدأ يذوب في الخلفية ، وكل شيء أصبح مظللاً بضوء خافت يحيط بها، الضوء الذي لا يعرف مصدره، الضوء الذي يجعل كل شيء يبدو أكثر وضوحًا وأكثر أهمية وأكثر حقيقية ، شعر علي برعشة خفية في يده التي تحمل الملف، لم يكن مايشعر به مجرد توتر المهنة أو عبء القضايا، بل شعور غريب، شعور أن شيئاً كبيراً على وشك البدء ، شيء سيغير، بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، مساره، حياته، وربما كل ما ظن أنه يعرفه عن نفسه.

كانت لحظة صامتة، طويلة رغم أنها قصيرة، لحظة تفكك الزمن فيها، لحظة يصبح فيها كل شيء واضحًا: كل القوانين، كل المواد القانونية، كل الإستراتيجيات، تصبح بلا معنى أمام تلك النظرة في تلك اللحظة، وفي ذلك الحضور ادرك ، فجأة، أن الامر ليس مجرد مواجهة عابرة، ليست مجرد لقطة خاطفة ، ولا بداية جلسة بل بداية قصة أكبر، قصة حياته المقبلة، التي سيحملها معه كل يوم كل صمت، كل قرار، وكل رقم في حياته...

كانت الفتاة ترتدي تنورة سوداء طويلة ، لا مبالغة فيها ولا إدّعاء وقميصاً أبيض مكوياً بعناية تُشبه عناية من يحترم المكان الذي يقف فيه وموشح رأسها بشال أسود يضيف وقاراً صامتاً، وفوق ذلك كلّه...عباءة مطرّزة، لا تستعرض نفسها، بل تحيطها تمنحها احتشامًا وعفة تشبه هدوء الفجر قبل أن يستيقظ الناس كأنها تحمل سكون الصباح في كل حركة لها خطواتها محسوبة، كأنها تعرف أين تضع قدمها قبل أن تفعل صوتها خافت، لكنه واضح وعيناها تحملان صرامة لا تتناقض مع رقة لباسها، بل تنسجم معها، كما تنسجم الحكمة مع الهدوء والصورة كانت كاملة.

فتاة تجسّد الاحترام والسكينة، ليس في مظهرها الخارجي فقط بل في طريقة وقوفها، في طريقة النظر، في الإقتصاد بالكلمات طويلة...سامقة كنخلة عراقية غريبة في صحراء، ثابتة رغم كل ما حولها وعيناها...عيون سومرية، فيها عمق الأنهار القديمة، كأنها تحمل تاريخاً لا يُقال، بل يُحسّ ، وقف عليّ للحظة، لا يعرف إن كان يجب أن يتكلم أم يلتزم الصمت.

الكلمات في ذهنه استقرّت ثم بعثرت نفسها من جديد قبل أن يدرك حقيقة صغيرة، لكنها بدت له مدهشة في دقتها:

-قال علي للفتاة بهدوء، يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه رغم الضغط الداخلي لكل ما يدور في المحكمة:

- أهلاً وسهلاً... تفضلي.

-إبتسمت الفتاة له بإبتسامة صغيرة، هادئة، لم تكن مصطنعة لكن فيها لمحة من الحذر، كما لو كانت تحاول التأكد أن هذا اللقاء سيكون آمناً، أو على الأقل مفهوماً...

-قالت الفتاة بصوت خافت لكنه واضح بما يكفي ليصل إلى ذهنه كما لو كانت تختار كل كلمة بعناية:

– استاذ علي كثير من موكليك يتصلون على رقم خط هاتف دارنا.

أرتسم على وجه علي تعابير التوجس والدهشة في آن واحد، وتردد للحظة قبل أن يسأل:

– وكيف ذلك...؟

–أجابت الفتاة...ببساطة، وكأنها تقول شيئاً طبيعياً، لكن في داخلها شعور بأنها قد تفتح بابًا لمفاجأة صغيرة :

– نعم استاذ علي... يحدث ذلك أحياناً

– سأل علي، محاولاً السيطرة على الفضول الذي بدأ يتسلل إلى عقله.

– وما هو رقم خط هاتف داركم...؟

أخرجت الفتاة ورقة صغيرة، وكتبت الرقم بعناية ثم، بعد أن أكملت الفتاة كتابة الرقم، التفتت إليه وقالت، بصوت يحمل القليل من الثقة الجديدة:

– تفضل استاذ علي...

إبتسم علي مرة أخرى، وأجاب بحذر، وكأن كل كلمة تُخرج من داخله بعد تمحيص:

-شكراً جزيلاً...!

الرقم كان مألوفاً جزئياً الى علي، لكنه لم يكن متطابقًا تماماً حيث لاحظ شيئاً غريباً: رقم خط هاتف داركم ينتهي بالرقم « 3... » بينما رقم خط هاتف مكتبنا ينتهي بالرقم « 2... » ، إبتسمت الفتاة بخفة، وكأنها تعرف أنه لاحظ الفرق: قالت الفتاة...نعم الأرقام متشابهة...إلاّ بالرقم الأخير.

شعر علي بمزيج من الإنتباه والإحترام، وأعتذر لها بإبتسامة خجولة، كما لو كان يقرّ بخطأ بسيط لم يلحظه من قبل: قال علي... عذراً على الإزعاج.

كان هناك لحظة صمت قصيرة، لكنها مثقلة بما لم يُقال، بما يحمل كل منهما في داخله من فضول واهتمام ، إبتسمت هي بدورها وكأنها تحاول أستيعاب الإسم، وربطه بكل ما رأت وشعرت حتى الآن وقالت بخفة:

- أنا المحامية...ملاذ وهذا أول يوم لي أباشر فيه عملي كمحامية... شعر علي في تلك اللحظة أن الإسم وحده يخبئ خلفه قصة حياة، شيء مختلف، شيء لم يره من قبل في أي

شخص داخل هذه المحكمة، داخل هذا المبنى الكبير المليء بالمسؤوليات الثقيلة الأوراق المتراكمة، والوجوه المتجهمة.

-قال بهدوء، محاولاً إضافة لمسة من اللطف والود:

-تشرفنا بك، ست ملاذ.

لاحظ علي في ملاذ فجأة، وفي صمت قصير، نبرة صوتها، حركتها الصغيرة وطريقة حملها لملفها، كل شيء فيها كان يُرسل رسائل صامتة له ، رسائل تقول إنه ليس مجرد أول يوم لها في المحكمة، بل بداية لشيء لم يرى من قبل، بداية لحضور قوي، حضور قادر على إثارة الفضول، دفعته إلى محاولة فهمها، ليس على المستوى المهني فقط، بل على المستوى البشري، العميق، الذي لم يعتد علي أن يشاركه مع أحد.

تمدد الصمت للحظة...لكنه لم يكن صمتاً فارغاً، بل صمتاً مشحوناً بالإحساس بالمكان، بالحركة، بالوقت الذي بدا وكأنه يتباطأ إحتراماً لهذه اللحظة والأوراق على الطاولات، صوت قلم يسقط على ورقة، خطوات الناس في الممرات، همسات الموظفين كل هذه الأصوات اختفت في الخلفية، وكأن المحكمة كلها توقفت لتسمع الحوار بين شخصين لم يلتقيا من قبل.

نظر علي إلى ملاذ مجدداً، وهو يراقب تفاصيل صغيرة لم تنتبه لها عيناه من قبل: طريقة وقوفها، ميل رأسها قليلاً، حركة أصابعها وهي تمسك الملف، نظرة عينيها التي لا تكذب أبداً، ولا تخفي شيئاً حتى لو حاولت.

شعر أن كل شيء عن هذه اللحظة، عن هذا اللقاء، عن هذا الإسم « ملاذ »، يحمل معنى أعمق، يحمل وعداً بشيء مختلف عن كل ما عاشه في حياته العملية الطويلة داخل أروقة المحاكم بين الملفات، الأرقام، القوانين، والمواعيد.

كانت هذه البداية، البداية الحقيقية، لحظة أول تواصل صامت طويل، مليء بالتفاصيل الصغيرة، ولكنها تحمل كل شيء: الفضول، الإحترام، الإحتمالية، الغموض، والإنجذاب الصامت لحظة لا تنسى، لحظة تتشكل فيها علاقة ليست مجرد علاقة عمل، بل فصل جديد في حياة كل منهما ، ستكتب أحداثه كل يوم، بين المكالمات، الملفات، الأوراق، وضجيج المحكمة... وبين الرنين الذي سيقلب كل شيء رأسًا على عقب ، تفصيل بسيط لكنه في تلك اللحظة بدا له لغزاً انكشف فجأة بلا مقدّمات حيث شعر بمزيجٍ غريب من المفاجأة والدهشة ولم تكن دهشة

صاخبة بل داخلية، صامتة، ترافقها ابتسامة خافتة لم يستطع إخفاءها.

كان يراقبها وهي تحافظ على هدوئها وإنسيابيتها في الحركة، وكأنها لم تشعر بثقل اللحظة التي سقطت على قلبه فجأة ، إبتسامتها الخجولة، وملامحها التي تمزج بين الوقار والهدوء والإحترام، جعلته يشعر بأنها تحمل سحراً لطيفاً، بلا أي محاولة لجذب الإنتباه...ومع ذلك، نجحت ، وخطواتها المحسوبة ، وتنقّلاتها الدقيقة، جعلت كل ما حولها يبدو أكثر ترتيباً وانسجاماً حتى صدى حركتها في الممر بدا وكأنه جزء من الإيقاع الصامت للمكان، لا يزعجه، بل يكمّله.

-إبتسمت ملاذ بخجل، وأومأت برأسها، ثم قالت بهدوء:

- لقد تمّ مناداتي إلى قاعة المرافعات لحضور جلسة في قضية أنا وكيلة فيها ولم تزد كلمة، ولم تشرح أكثر مما يلزم.

-استأذنت، ملاذ...ثم انصرفت كما جاءت، بلا ضجيج، بلا إلتفات زائد.

- قال عليّ مبتسماً، وهو يشعر بخفّة غريبة في صدره:

- تشرفنا بمعرفتك، ست ملاذ.

أنصرفت ملاذ...لكن خطواتها المحسوبة تركت صدىً خافتًا في الممر صدى لم يكن صوتاً فقط، بل إحساساً.

شعور غامض أستقرّ في داخل علي، مزيج من الانبهار والفضول وكأن حضور ملاذ القصير كان كافيًا ليترك أثرًا طويلاً في ذاكرته أثراً لا يُمحى بسهولة وكان هذا الشعور يشبه وهج ضوء ، خافت في غرفة مظلمة، يقتحم قلبه شيئًا فشيئًا دون أن يطلب إذنًا أحسّ بتلك الاهتزازات الدقيقة التي تمرّ عبر الصدر، وكأن الهواء نفسه أصبح أثقل قليلاً، محمّلًا برائحة وجودها وبصمتها الذي يتحدث أكثر من أي كلمة يمكن أن تُقال.

ظل علي واقفًا للحظات، يتابع تفاصيلها الصغيرة التي لطالما تغاضى عنها الآخرون : خفة خطواتها، تلك الابتسامة العابرة التي لم تكن موجهة له وحده لكنها اشعرته وكأنها رسالة خفية وكل حركة كانت تنبض بالحياة، وكل نظرة كانت تحمل سؤالًا لم يُطرح بعد، وكل صمت كان يخلق بينهما جسرًا من الحيرة والدهشة ، في قلبه، تشكلت موجة من المشاعر المتضاربة؛ رغبة في الاقتراب خوف من الاقتراب، فضول لمعرفة ما وراء تلك العيون التي تحمل أسرارًا كثيرة، وانبهار بما يبدو أنه يترك أثرًا على كل شيء من حوله

شعر وكأن الوقت قد تباطأ للحظة، وكأن المدينة بأكملها توقفت عن التنفس لتستمع إلى وقع وجودها، حتى أصوات الخطوات البعيدة، وضوضاء الشوارع، بدت أقل حدة أمام صمت تلك اللحظة ، وبينما كان علي يراقبها، أدرك أن هذه اللحظة لن تكون مثل أي لحظة أخرى فهناك شيء في طريقة حضورها يشبه موجة هادئة تكسر الصخور بصمت، شيء يوقظ داخله مشاعر نسيها أو ربما لم يعرفها من قبل، شعور يجمع بين الدهشة، الانبهار والتساؤل المستمر: من هي حقًا...؟ ماذا تحمل معها...؟

وما الذي سيتركه هذا اللقاء في قلبه بعد أن تنصرف عن نظره...؟ كل شيء بدا مشحونًا بالمعنى، حتى أصغر التفاصيل ، كانت تلك اللحظة مثل لوحة فنية غنية بالألوان، كل لون منها يعكس جزءًا من ذاته، جزءًا من حواسه، جزءًا من ذاكرته التي بدأت تعيد ترتيب نفسها بشكل غير مفهوم. شعر علي، لأول مرة منذ وقت طويل، بأن شيئًا قد تغير بداخله؛ شعور لم يكن يمكن وضعه في كلمات، لم يكن مجرد إعجاب عابر، بل بداية لإحساس عميق مستتر، لكنه مؤثر، شعور ربما سيقوده إلى ما لم يكن يتوقعه، إلى تجربة جديدة، إلى فهم جديد لذاته وللعالم من حوله.

همس المشاعر

الوجدان يبوح بصمت

مع أنتهاء الدوام الرسمي ، عاد عليّ إلى مكتبه وكانت المدينة خارج النوافذ قد هدأت بعد يوم طويل، أصوات السيارات والمارة بدأت تتلاشى، وكأنها تمنح المكان فرصة للتنفس بعد ضجيج النهار أما داخل المكتب، فكان الهدوء مختلفاً تماماً، ليس مجرد صمت عادي، بل هدوء ما بعد التعب، هدوء يحمل رائحة الورق والملفات، رائحة القهوة الباردة التي نُسيت على الطاولة منذ الصباح، رائحة الخشب القديم للأثاث الذي شهد سنوات من العمل والإجتهاد.

المكتب كان مليئاً بالتفاصيل الكثيرة التي لم يلتفت إليها أحد لكن علي كان يشعر بها كلها: الكرسي المتحرك في زاوية الغرفة المصباح الذي يسقط ضوءه على سطح الطاولة الخشبية المملوءة بالأوراق الأسلاك المتشابكة من الهاتف والطابعة، والحاسبات...النسيم البارد الذي يدخل من الشرفة المفتوحة، وكل شيء كان يحمل إحساساً غريباً بالسلام بعد الصخب... علي وجد حسن الذي

يعمل في ادارة المكتب بعد انتهاء الدوام المدرسي جالساً على كرسي المكتب، مسترخياً قليلاً، لكن عينيه لم تفقدا التركيز وعلى ملابسه بقايا حبر، بقايا درس ألقاه صباحاً في المدرسة التي يعلّم فيها التلاميذ وكان حسن معلمًا، لكنه معلم مختلف: يرى القلم أقدس من الخبز ويؤمن أن المعرفة لا تقل شرفاً عن العدالة، وأن كل كلمة تُكتب يمكن أن تزرع أثراً طويلاً في قلب من يقرأها، مثل بذرة تنتظر المطر لتنبت.

إبتسامته الخفيفة، وعينيه التي تتلألأ بالذكاء الهادئ، أعطت علي شعوراً بالطمأنينة بعد يوم طويل من المواعيد والقضايا الثقيلة والملفات المتشابكة.

أخرج علي ورقة صغيرة من جيب سترته، يراقب حركة حسن بتمعن، كل تفاصيل تعبيراته، كل حركة إصبعه على الطاولة، كل وميض في عينيه وكانت الورقة تحمل الرقم الذي أثار قلقه طوال اليوم، رقم ربما كان سببًا في إزعاج عائلة لم يقصد إيذاءها يومًا...

– قال علي الى حسن... بصوت هادئ لكنه يحمل ثقل المسؤولية

– حسن... قارن هذا الرقم مع رقم خط هاتف مكتبنا أخذ حسن الورقة بيده، نظر إليها بدقة، ثم إبتسم إبتسامة ، صادقة خرجت بلا تصنع :

– قال حسن ...سبحان الله... الرقم نفسه، إلاّ الرقم الأخير...!

رفع رأسه ببطء، وعينيه لا تزالان تتلألأ بالدهشة وأضاف:

– رقم خط هاتف مكتبنا ينتهي بـ « 2... »، ورقم خط هاتف دارهم ينتهي بـ « 3.... »

جلس علي على كرسيه، لحظة صمت ، ويده تعبث بخفة فوق الطاولة الخشبية، يشعر بملمس الورق، ببرودة المكتب، وبهدوء ما بعد الصخب، كل شيء حوله يذكره بأن المسؤولية لا تختفي بمجرد نهاية الدوام ، فكر في المكالمات الخاطئة، في الوقت الضائع للعائلة، وفي أحتمالية أن يكون سبباً في أي إزعاج، ولو بشكل غير مقصود.

كان يعرف أن التفاصيل الصغيرة، التي يراها البعض تافهة، يمكن أن تحمل أثراً كبيراً على حياة الناس، وأن كل رقم، كل كلمة، كل تصرف، يمكن أن يكون له صدى لا يراه إلا من يراقب بعناية وهز

علي رأسه ببطء، كأنه يرتّب أفكاره قبل إتخاذ القرار، ثم قال بحزم بصوت صارم لكنه هادئ :

– حسن... أريد أن أغيّر رقم خط هاتف المكتب.

نظر إليه حسن متفاجئاً، لم يستوعب على الفور جدية الموقف فقال بابتسامة مشوبة بالدهشة:

– لهذه الدرجة أثّر عليك الموضوع...؟

–أجاب علي دون تردّد، بعينين ثابتتين ونبرة واضحة، صدى المسؤولية يتجسد في كل كلمة:

– نعم ياحسن... وهذا رأيي.

ساد صمت قصير، لكنه صمت مشحون بالمعنى وان حسن لم يقل شيئًا، لكنه فهم ما يعنيه عليّ ، وانشرت إبتسامة صغيرة ارتسمت على شفتيه، كأنها موافقة صامتة، أمتداد لصوت الحقيقة الذي لا يحتاج إلى خطاب، فقط إلى أفعال.

جلس علي على مكتبه، وضع الورقة أمامه، وترك يده ترتخي على سطح الخشب البارد، وهو يفكر في الرقم الجديد للخط، رقم يمكن أن يخفف من الأخطاء المستقبلية، رقم يمكن أن يرمم ما يمكن أن

يُفسد بطريقة بسيطة، رقم يعكس الاهتمام بالآخرين، بالرغم من كل صخب العمل وأخذ نفساً عميقاً، وتأمل المكتب من حوله: الملفات المتراكمة على الطاولات، الأوراق المتناثرة، مصابيح المكتب التي تصب ضوءها على الأوراق، كأنها تسلط الضوء على مسؤولياته، على كل مهمة صغيرة وكبيرة، على كل قرار قد يغير شيئًا في حياة الآخرين، حتى لو كان بسيطاً.

ثم ألتفت إلى حسن، الذي كان يراقبه بعينين هادئتين، كأنه يراقب شخصًا يتأمل العالم كله في لحظة واحدة ، قال علي الى حسن بعد ابتسامة خفيفة:

- حسن...في كثير من الأحيان، التفاصيل الصغيرة تصنع الفرق هز حسن رأسه، متفهمًا، وعرف أن اليوم ليس مجرد يوم عمل عادي، بل درس آخر في المسؤولية، في الحذر، في إدراك أن لكل فعل أثر، ولكل رقم معنى، ولكل قرار صدى يتردد بعيداً أكثر مما نتصور.

مرت دقائق صامتة، علي يراقب المكتب، حسن يراقب علي وكأن المكان كله يشاركهما الشعور بالمسؤولية، بالهدوء بعد الضجيج، بالوعي بأن كل شيء- حتى رقم خط الهاتف- يمكن

أن يكون بداية لتغيير كبير أو بداية لتجنب خطأ بسيط قد يكلف أحدهم لحظة من راحته وفي هذه اللحظة، شعر علي بأن العالم خارج المكتب توقف قليلًا كأنه يعترف بأهمية التفاصيل الصغيرة كأنه يمنحه فرصة لإعادة ترتيب نفسه، لإعادة ترتيب العمل وللتأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن الاهتمام الصامت، المسؤولية، والدقة في التفاصيل، هي ما تصنع الفرق الحقيقي في الحياة والعمل معًا وبعد يومين، قام علي بتغيّر رقم خط الهاتف ، ولم يكن التغيير في الرقم نفسه إلاّ حدثاً بسيطاً على السطح، لكنه مثّل بالنسبة الى علي شيئاً أكبر بكثير: بداية فصل جديد، بداية تجربة صمتٍ مفعمة بالإحترام والصبر ، فكل شيء من حوله كان هادئًا، وكأن المدينة نفسها تشاركه شعور الهدوء الذي بدأ ينسج في قلبه لكن ما لم يتغيّر...كان شيئاً بدأ يتكوّن بصمت، بعيدًا عن الأرقام بعيداً عن صخب الحياة اليومية.

كان شعوراً خافتاً، يزرع في نفسه مسام قلبه بهدوء، يختبئ بين ثنايا الانتظار والاحترام ، وفي مساءٍ هادئ، كانت المدينة تغرق في ضوء الغروب، والهواء يحمل رائحة التراب المختلط بأوراق الخريف الذابلة، اتصل عليّ برقم خط هاتف دار ملاذ من الرقم الجديد

رنّ الهاتف طويلًا، رنّةً امتدّت كاختبار صبر، كأن الوقت نفسه أختبره قبل أن يأتي الرد ، ثم جاء الصوت، صوت شابة صغيرة على ما يبدو من صوتها ، فيه مزيج من الدهشة والفضول:

– قالت ألو...؟

–أجاب عليّ بهدوء، محافظاً على نبرته الرسمية المعتادة، نبرة محامٍ أعتاد على إدارة المواقف بحذر:

– السلام عليكم...معك المحامي عليّ.

سكتت لحظة، ثم جاء صوتها بفرح صريح، لا يمكن إخفاؤه كإشراقة شمس تدخل غرفة مظلمة:

– أهلاً وسهلاً أستاذ علي...!

–أنا ملاك... أخت المحامية ملاذ.

–قال عليّ بهدوء، محافظاً على المسافة الرسمية، لكنه لم يستطع منع شعور دفئه الذي بدأ يترسخ داخله:

– فقط أردت إخباركم أنني غيّرت رقم خط الهاتف السابق حتى لا تزعجكم الإتصالات،وجاءه صوتها مستغرباً، مشوباً بالإمتنان وكأنها تحاول فهم هذا الاهتمام الصامت:

–ليش أستاذ علي...؟

تعبت نفسك لهذه الدرجة...؟

-قال عليّ ببساطة، كما لو كان يتحدث إلى نفسه أكثر من أي شخص آخر:

- هذا رأيي...وأحتراماً لخصوصيتكم.

صمتت قليلاً، ثم أضافت بصوت خافت لكنه صادق:

- شكرًا لك أستاذ علي على ذلك.

كرّر عليّ عذره، وأبلغ تحياته إلى ست ملاذ، وختم المكالمة بالسلام ووضع السماعة بهدوء، وجلس لحظة صامتاً، مستمعاً إلى صدى صمت الغرفة ولم يكن يدرك بعد...أن هذا الإحترام سيكون أثقل من أي أعتراف، أثقل من كلمات الحب المعلنة أثقل من أي وعد أو التزام.

جلس عليّ على كرسيه، ينظر إلى الهاتف وكأن النظر إليه يكشف له أسراراً دفينة واستعاد في ذهنه كل تفاصيل الأيام الماضية: لحظات الإنتظار وموقفه مع ملاذ الصعب، ونبرة صوتها حين كانت تتحدث معه عند بداية اللقاء.

أدرك أنه كان يراها أكثر مما يراه أي شخص آخر، ليس فقط لأنها كانت جزءًا من حياته المهنية، بل لأنها أصبحت جزءاً من عالمه الداخلي، الذي لم يعرفه إلاّ هو.

ثم تذكر تلك اللحظة حين رأى فيها ملاذ لأول مرة، عند دخوله المحكمة اذ لم يكن القدر الذي جمعهما مجرد لقاء بل أمل متوهج خلف نظراتها وكيف أن ملاذ كانت عند اللقاء تراقب بعينين مليئتين بالفضول والحنان...؟ حتى أصبح عليّ يتذكر كل التفاصيل الصغيرة : صوت خطوات ملاذ في المحكمة، حركة يديها عند ترتيب الأوراق طريقتها في الابتسامة ، وكيف أن تلك الابتسامة كانت كافية لتخفيف أي ضغوط أو تعب...؟

حتى الهواء الذي يدخل من النوافذ كان يذكّره بها، وكأن العالم كله أصبح حاضناً لهذا الإحترام الذي لا ينطق بالكلمات وبدأ شيء أعمق ينمو في قلبه، شيء لم يعرفه من قبل وكل شيء يختلط في داخله ليخلق شعورًا جديدًا شعور لا يحتاج إلى إعلان شعور يربط الأرواح أكثر من الكلمات.

جلس عليّ أمام نافذته، يشاهد المطر يسقط على الزجاج، ورذاذه يخلّف خطوطًا صغيرة متعرجة على الزجاج وتذكر مكالمته مع

ملاك اخت ملاذ ، تذكر صوتها، وكأن كلماتها ما زالت تتردد في أذنه : ليش أستاذ علي...تعبت نفسك لهذه الدرجة...؟

تذكر هذه الكلمات، وابتسم لنفسه بهدوء وأدرك أن التعب لم يكن جسديًا ولم يكن مهنيًا، بل كان تعب القلب...التعب الذي يولد من الاهتمام الصادق، ومن الرغبة في حماية الآخرين ، ثم أدرك عليّ أن هذه المشاعر ليست مجرد إحترام أو واجب مهني بل أكثر من ذلك وبدأت أفكاره تتسلل بعيدًا عن الواقع، تتخيل حياة أكثر دفئاً حياة حيث يكون الإحترام والتقدير هو الأساس حيث لا حاجة للاعتراف بالكلمات، بل أن تكون الأفعال هي اللغة الوحيدة.

جلس عليّ ويداه على قلبه، يتذكر كل موقف صغير، كل لحظة هدوء، كل ابتسامة خفية وكانت هذه اللحظات الصغيرة، الهادئة هي من صنعتها، هي من رسختها، وهي من أعطاها وزناً أثقل من أي كلمة يمكن أن تُقال ، بينما كان الليل يمتد، والمدينة تغرق في صمتها، أدرك عليّ أن هذا الاحترام، هذه المشاعر الصامتة، هي أكثر من مجرد احترام لخصوصية الآخرين.

إنها بداية قصة أكبر، قصة قلب بدأ يتعلم لغة الصبر، لغة الانتظار، ولغة الحب غير المعلن، الحب الذي يكبر في الصمت ويصبح أثقل من الاعتراف ، وقلبه تعلم كيف يحتمل الفراغات بين الكلمات...؟

وكيف يلتقط اللحظات العابرة التي تحمل بين طياتها دلالات لا يراها أحد سواه...؟

وأصبح علي يقرأ نظرات صغيرة ابتسامات مختصرة، همسات عابرة كأنها رسائل سرية مخفية في تفاصيل الحياة اليومية وكل لحظة تمر به تشبه صفحة من كتابٍ لم يُكتب بعد يخط فيه شعوره بعناية يرص الحروف كما يرتب ذكرياته، يحاول أن يفهم كيف يمكن للحب أن يكون صامتًا لكنه حاضر في كل نبضة، في كل شعور، في كل قرار صغير يتخذه ومع كل يوم يمضي، يشعر أن هذا الحب، رغم هدوئه، قد أصبح قوة خفية تغيّر نظرته إلى العالم تجعل لكل حركة وكل صوت معنى أكبر، وتمنح التفاصيل الصغيرة بريقًا لم يكن يراه من قبل ، ولم يعد الصباح مجرد بداية يوم جديد بل احتمالًا خفيًا لرسالة، لابتسامة عابرة، لنظرة قد تمرّ سريعًا لكنها تبقى طويلًا في القلب ، حتى ضجيج المدينة لم يعد يزعجه كما كان؛ صار يراه

خلفية بعيدة لقصة تنمو في صمت، قصة لا تحتاج إلى ضجيج لتثبت وجودها

أصبح أكثر انتباهًا لما حوله، كأن الحب أيقظ فيه حاسة سادسة يتأمل الوجوه، يقرأ النبرات، يلتقط الإشارات الصغيرة التي كان يتجاوزها دون اكتراث وكل شيء بات يحمل احتمالًا، وكل لحظة عادية قد تخبئ في طيّاتها معنى عميقًا لا يُكشف إلا لمن ينتظر بصبر وتعلمه أن الانتظار ليس فراغًا كما كان يظن، بل امتلاء صامت. هو مساحة ينضج فيها الشعور، وتختبر فيها القلوب صدقها، بعيدًا عن استعجال الاعتراف أو ثقل الوعد وفي الانتظار شيء من الطمأنينة، كأن القلب يقول لنفسه: ما كُتب سيأتي وما خُلق لك لن يفوتك.

بل إنه بدأ يدرك أن الوصول أحيانًا يضع حدًا للحلم، بينما الانتظار يبقيه حيًا، نابضًا، متجددًا في الخيال ، في الانتظار يظل الاحتمال مفتوحًا، وتظل الصورة مشرقة غير مكتملة، جميلة بقدر ما هي مؤجلة. وهكذا، صار يحب هذا الشعور الهادئ، لا لأنه يمنحه يقينًا، بل لأنه يمنحه معنى... ويجعله يرى العالم بعينين

امتلأتا رجاءً، وقلبٍ تعلّم أن الصبر ليس ضعفًا، بل شكلًا آخر من أشكال الحب.

صدى اللحظات

كل لحظة تنسج حكاية

عند ختام ذلك اليوم، جلس عليّ متأملاً، يكتب في دفتره الخاص صفحات مليئة بالأفكار والمشاعر:

« لم أعد أحتاج إلى كلمات...كل ما أفعله الآن، كل اهتمامي كل صمتي...هو اعتراف بنوع آخر من الحب....نوع لا يعلن نوع يختبئ بين الخطوط، بين الأرقام، بين الأصوات الهادئة التي تصنع الفرق ».

ومع كل صفحة جديدة، كان يشعر أن قلبه ينمو، ليس بالحب المعلن، بل بالاحترام، بالوفاء، بالهدوء الذي أصبح يملأ حياته... شيئًا بدأ بصمت، وسيكبر بصمت، ويظل أثقل من أي كلمة يمكن أن تُقال ، بعد ساعاتٍ ثقيلةٍ من الصمت، كان المكتب يغرق في ذلك الهدوء الذي لا يشبه الراحة، بل يشبه الإنتظار الأوراق مصطفّة على الطاولة كجنودٍ يعرفون أن معركةً ما ستبدأ قريباً، والملفات المتراكمة في الزوايا كانت مثل أسوارٍ صامتة تحرس أسرار الأيام الماضية النافذة نصف المفتوحة تسمح لنسمة خفيفة

أن تعبث بستارةٍ شاحبة، كأنها تذكير بأن العالم في الخارج لا يزال حيّاً، وأن الحياة لا تتوقف حتى عندما يغرق المرء في صمته.

الساعة كانت تشير إلى ما بعد العصر بقليل، والضوء الذهبي الخافت يتسلل من النافذة، يلامس الزوايا المظلمة في المكتب فيخلق تباينًا بين الضوء والظل، كما لو أن المكان نفسه يحمل لغةً سرّية تختبيء بين الجدران.

كل شيء كان هادئًا، لدرجة أن عليّ بدأ يسمع أصواتاً لم يكن ينتبه لها عادة: حركة الأوراقٍ بسبب النسيم، خطوات حسن عندما يمر بجانب الطاولة، حتى صوت عقارب الساعة الذي بدا له كأنه يهمس له شيئًا لم يفهمه بعد.

رنّ هاتف المكتب فجأة، رنينه الحاد إخترق سكون المكان كصاعقة صغيرة، فأطاح بكل الهدوء الذي تراكم في ساعات الانتظار الطويلة.

-رفع حسن سماعة الهاتف ، استمع للحظات، ثم التفت نحو عليّ وهو يبتسم ابتسامةً ماكرة، ابتسامة تختزن نوعًا من الدعابة التي لم يشاهد عليّ منها إلا القليل:

- قال حسن...

– أستاذ علي... فتاة تريد ان تكلمك على الهاتف، قالها ضاحكاً، وكأنه يلقي حجراً صغيراً في بحيرةٍ ساكنة.

لم يعلّق عليّ، اكتفى بنظرةٍ سريعة، ثم مدّ يده وأخذ سماعة الهاتف كان صوته هادئاً، رسمياً، لكنه يحمل تلك النبرة الدافئة التي لا تخطئها الأذن، نبرة رجل يعرف متى يتحدث... ومتى يستمع...

– أهلًا وسهلًا، تفضّلي.

جاءه الصوت مألوفاً أكثر مما توقع، كأنه خرج من زاويةٍ مخفيّة في ذاكرته، صوت يحمل شيء من الحنين، شيء من الدفء الذي لا يُنسى بسهولة:

– مرحباً أستاذ علي...أنا المحامية ملاذ.

توقف الزمن لثانيةٍ واحدة فقط ثانية قصيرة، لكنها كانت كافية ليشعر عليّ بأن شيئاً ما تغيّر في داخله.

قلبه ارتجف قليلاً، كأنه يركض قبل أن يلتفت، لكنه سرعان ما هدأ، واعتمد على صوته المتزن، على هدوئه الذي طالما حافظ عليه في مواجهة المواقف الصعبة:

– أهلاً وسهلاً بكِ ست ملاذ سررت باتصالك...

-قالت ملاذ، بعد ترددٍ خفيف كأنه محاولةٌ لترتيب الكلمات محاولةٌ لإخفاء الفرح أو الدهشة:

- استاذ علي أختي ملاك أخبرتني أنك إتصلت علينا وبلغتها بأنك غيّرت رقم خط هاتف مكتبكم...لماذا فعلت ذلك...؟

-أجاب عليّ دون تردّد، لكن بصوتٍ خالٍ من الإدعاء، صوت يحمل إحترامًا صادقاً، شيء أكثر قوة من أي كلمات يمكن أن تُقال:

- نعم...إحتراماً لكم.

ساد صمتٌ قصير...لم يكن فارغاً، بل كان مليئًا بأشياء لم تُقل: مشاعر لم تُصرّح بها، أفكار تجمّعت في قلبه منذ أسابيع إحترامٌ بدأ يكبر داخله ليصبح وزناً لا يُرى، لكنه محسوس.

ثم قالت : ملاذ بصوتٍ أخفّ، صوت يشبه خيطًا دافئاً يمر عبر الهواء:

- شكرًا لك أستاذ علي...ازعجنا حضرتك.

- شكرًا لوقتك استاذ علي...الى اللقاء.

- قال علي...سعيد بالتحدث معك ست ملاذ.

إنتهت المكالمة...

أعاد عليّ السماعة ببطء إلى مكانها، وبقي واقفًا للحظات، ينظر إلى الهاتف كأنه يتوقع أن يرنّ مرةً أخرى، أو كأنه ينتظر تفسيراً لما شعر به للتو.

إنها بداية قصة أكبر، قصة قلب بدأ يتعلم لغة الصبر، لغة الانتظار، ولغة الحب غير المعلن، الحب الذي يكبر في الصمت ويصبح أثقل من الاعتراف وقلبه تعلم كيف يحتمل الفراغات بين الكلمات، وكيف يلتقط اللحظات العابرة التي تحمل بين طياتها دلالات لا يراها أحد سواه وأصبح يقرأ نظرات صغيرة، ابتسامات مختصرة، همسات عابرة كأنها رسائل سرية مخفية في تفاصيل الحياة اليومية. كل لحظة تمر به تشبه صفحة من كتابٍ لم يُكتب بعد يخط فيه شعوره بعناية، يرص الحروف كما يرتب ذكرياته، يحاول أن يفهم كيف يمكن للحب أن يكون صامتًا، لكنه حاضر في كل نبضة، في كل شعور، في كل قرار صغير يتخذه ومع كل يوم يمضي، يشعر أن هذا الحب، رغم هدوئه، قد أصبح قوة خفية تغير نظرته إلى العالم، تجعل لكل حركة وكل صوت معنى أكبر، وتعلمه أن الانتظار قد يكون أحيانًا أجمل من الوصول.

جلس علي على كرسيه واضعًا يده على ذقنه، يتأمل تفاصيل المكالمة مع ملاذ وبدأت الأفكار تتدفق إلى ذهنه مثل نهر هادئ كل فكرة تتفرع عن الأخرى، بعضها مألوف، وبعضها يثير تساؤلات لم يخطر بباله من قبل وتذكّر صوت ملاذ، نبرته الرقيقة التي تحمل بين كلماتها أكثر مما تقوله، ابتسامتها الخفية التي تخفي خلفها مزيجًا من الحيرة والإصرار.

اقتربت صور اللحظات الأخيرة من ذهنه، كل تفصيل صغير أصبح كأنه مشهد في فيلم يعرض ببطء أمام عينيه ثم بدأ شعور غريب يتسلل إليه، مزيج من الفضول والقلق، وكأن المكالمة لم تنته بعد، وأن هناك رسالة لم تُقال، أو معنى لم يُفكّر فيه بعد وتنهد علي، مدّ يده ليعبث بالقلم على الطاولة، حركته الوحيدة في غرفة ساكنة صامتة، حتى صوت عقارب الساعة بدا له وكأنه جزء من الموسيقى الخلفية لهذه اللحظة. قرر أن يسجل كل ما يخطر في ذهنه قبل أن يضيع بين خيوط الذاكرة والتفكير.

كانت تلك البداية فقط، شعور بأنه على وشك كشف شيء أكبر من مجرد مكالمة هاتفية؛ شيء يربط الماضي بالحاضر، والآن بالمجهول الذي ينتظره على الطرف الآخر من هذه اللحظة.

نظر حوله مرة أخرى إلى المكتب: الأوراق، الملفات، القلم الملقى على الطاولة، حتى الكوب الفارغ للقهوة التي نسي أن يشربها كل شيء بدا وكأنه يحمل ذكرى، وكأنه يشهد على أهتمامه الصامت على احترامه الذي أصبح أثقل من أي إعتراف.

في الليل، حين بدأ الظلام يغطي المدينة، جلس عليّ بجانب النافذة، يشاهد المصابيح تتلألأ في الشارع، يراقب حركة السيارات المارة، وكل ضوء يمر كان يذكّره بابتسامة ملاذ، وابتسامة الحياة التي تحملها وبعد ذلك سحب دفتره، وأخذ يكتب:

« الأفعال أصدق من الكلمات...الإحترام، الإهتمام، الصمت... كلها رسائل لا تحتاج إلى إعلان أحياناً، مجرد تغيّر رقم هاتف مجرد اهتمام بسيط... يكون أثقل من أي إعتراف »

جلس طويلًا، يكتب ويعيد قراءة الكلمات، يكتب عن شعوره عن الصمت الذي أصبح لغة جديدة، عن الاحترام الذي أصبح وزنًا، عن الحب الصامت الذي يكبر دون أن يعلن نفسه.

وفي الأيام التالية، أصبح عليّ يلاحظ التفاصيل الصغيرة أكثر من أي وقت مضى: ابتسامة ملاذ ونظرتها حركات حسن حين يمر بجانبه، حتى النسيم الذي يدخل من النافذة بدا وكأنه يحمل

همسات خفية من المكتب إلى قلبه ومع كل يوم، وكل مكالمة، وكل صمت، كان يشعر أن شيئاً بداخله يتغير: احترامه أصبح أعمق إهتمامه أصبح أصدق والمشاعر التي لم تُعلن بعد أصبحت أثقل أكبر، أعمق...أكثر من أي كلمات يمكن أن تُقال، أكثر من أي اعتراف يمكن أن يُعلن في اليوم التالي، وصل عليّ إلى المكتب قبل المعتاد، وكأن صمت الليل الطويل قد زرع في قلبه توقعاً لما قد يأتي.

حسن، الذي أعتاد على روتين المكتب،لاحظ على الاستاذ علي توتّرًا خفيفًا وإبتسامةٍ تعلو شفتيه حين مرّت عيناه على ملفات الأمس.

جلس عليّ خلف مكتبه، ينظر إلى الهاتف، إلى الملفات، إلى كل التفاصيل الصغيرة التي أصبحت تتخذ معانٍ جديدة في ذهنه...وبينما كان يفكر، تذكّر مكالمته مع ملاذ مرة أخرى الصوت، النبرة، وحتى التردد الطفيف الذي حاولت إخفاءه... كل شيء بدا له أكثر وضوحاً في هذا الصباح ولم يستطع منع نفسه من الإبتسامة الخفية فهناك شيء في هذه المكالمة جعله يشعر بأن الإحترام، الصمت والإهتمام الصادق، يمكن أن يحمل

وزناً أثقل من أي كلمات حب أو إعترافات مفاجئة وفي وقت لاحق من النهار، جاءه أتصال آخر، هذه المرة من ملاك.

رن الهاتف، رفع عليّ السماعة ، وصوتها كان مليئاً بالحيوية، لكنه لا يزال محتفظاً ببراءته:

– صباح الخير... أستاذ علي...أردت فقط التأكد أن كل شيء على ما يرام.

إبتسم عليّ، ونبرة صوته تحمل نفس الدفء الذي إعتادت عليه:

– صباح النور عزيزتي ملاك...كل شيء بخير، شكراً لسؤالك ضحكت ملاك، ضحكة صغيرة لكنها مفعمة بالحياة، وكأن الشمس دخلت الغرفة عبر سماعة الهاتف:

– قالت ملاك...أنا أحب التأكد من أن كل شيء يسير بسلاسة، خصوصاً بعد التغييرات الأخيرة.

– قال علي...نعم...وأنا أقدّر ذلك الإحترام والإهتمام...حكت ملاك قليلاً عن يومها في الجامعة، عن موقف طريف حدث في احدى المحاظرات، وعن ملفات كانت تحاول تنظيمها منذ أيام أستمع عليّ بتمعّن، أحياناً يضحك خفيفاً على تفاصيلها، أحياناً يظل صامتاً ويكتب ملاحظات صغيرة في ذهنه، كأنه يسجّل كل

لحظة بعد المكالمة، جلس عليّ طويلاً، يفكر في كل شيء ،تتذكر اللحظات الماضية مع ملاذ، مواقفها الهادئة، صبرها، براءتها اهتمامها وطريقتها في التعبير ، كانت تلك اللحظات صغيرة لكنها مليئة بالمعنى، كأنها تشبه قطرات الضوء التي تتسلل بين ستائر الغرفة، تلون كل شيء حولك بلون من الدفء والهدوء صبرها لم يكن صبرًا عابرًا، بل كان صبرًا عميقًا يثير الإعجاب يمنح كل موقف لمسة من الثبات والطمأنينة، وكأنها تعرف تمامًا متى تتحدث ومتى تصمت، ومتى يكتفي العالم بمجرد وجودها.

براءتها كانت واضحة في كل شيء، في ابتسامتها الخجولة، في طريقة حملها للأشياء الصغيرة، في حركتها الرقيقة التي لا تصدر أي ضجيج لكنها تترك أثرًا دائمًا ، اهتمامها كان دقيقًا، يظهر في كل تفصيل، في طريقة النظر إلى الآخرين وكأنها تقرأ ما لم يُقال، في لمستها اللطيفة للأشياء، في طريقة ترتيب ملفها أو مسكها للقلم كل حركة تحمل معنى وحرصًا، وتخبرك أنها ترى العالم بعينين مختلفتين، عيني من يفهم قيمة كل شيء صغير.

وطريقتها في التعبير، سواء بصوتها الناعم أو بحركاتها الخفية، كانت تجعل من كل كلمة أو تصرف رسالة صامتة تصل مباشرة إلى

القلب ، لم تكن مجرد لغة كلمات، بل لغة أشبه بالهمسات، لغة يفهمها القلب قبل العقل، لغة تجعل الوقت يتوقف للحظة، وتترك أثرًا لا يزول، شعورًا بأن كل شيء حولك أصبح أكثر وضوحًا ودفئًا وجمالًا ، وكل لحظة معها كانت كصفحة من كتاب نادر، مليئة بالتفاصيل التي تريد أن تحفظها إلى الأبد، لأنها لم تكن مجرد لحظات عابرة، بل كانت بداية قصة أكبر، قصة من الهدوء، من النقاء، من الروح التي تعرف كيف تجعل كل شيء من حولها أفضل، أكثر سلامًا، وأكثر حياة.

فتاة الروح

فتاة تتسلل الى نبضات الوتين

مع توالي الأيام ، بدأ عليّ يلاحظ تفاصيل صغيرة كانت تمرّ عليه عادة دون أن يلاحظها: كل هذه التفاصيل أصبحت تحمل معنى كل حركة، كل إبتسامة كل صمت...أصبح يحمل لها وزن أكبر مما تتصور الروح ، ومع مرور الوقت، بدأ يشعر أن الإحترام أصبح لغة صامتة، وأن الحب يمكن أن يولد دون كلمات، فقط من خلال الإهتمام الصبر، والملاحظات الدقيقة التي لا يراها إلاّ القلب ، في إحدى الأمسيات، جلس عليّ عند النافذة، يشاهد المطر يهطل بهدوء على الشوارع ، وضوء المصابيح ينعكس على المياه المتجمعة في الأرصفة، وكأن المدينة نفسها تعكس شعوره الداخلي.

تذكر المكالمة الأخيرة مع ملاذ وابتسامتها الصغيرة، تذكر كلماتها وكيف أن صمته وإهتمامه أصبحا أثقل من أي اعتراف يمكن أن يصدر منه ، سحب دفتره وبدأ يكتب، وكأن كل كلمة تخرج من داخله تعيد ترتيب مشاعره: « الصمت أحياناً يكون أكثر صدقاً

من الكلمات...الإحترام الإهتمام، الملاحظة الصادقة...كل هذا يزرع شيئاً في القلب لا يعرفه إلاّ من يعطيه أحياناً، مجرد تغيّر رقم هاتف، مجرد إهتمام صغير، يكون أكثر وزناً من أي إعتراف »

وفي الليالي التالية، أصبح روتينه اليومي مليئًا بهذه التفاصيل: مراجعة الملفات، ترتيب المكتب، سماع أخبار ملاذ ، وملاحظة كل حركة صغيرة يمكن أن تحمل معنى أكبر مما يظهر على السطح.

وذات يوم، بينما كان عليّ يعمل على ملفات قديمة، دخل حسن المكتب وهو يحمل كوبًا من الشاي:

– أستاذ علي... يبدو أنك اليوم تفكر أكثر من المعتاد.

إبتسم عليّ خفيفًا، لكنه لم يرد، اكتفى بالنظر إلى الملفات أمامه حسن، الذي أصبح يلمس أحياناً اهتمامات عليّ، جلس بهدوء يراقب صمت عليّ وكأنه يقرأه دون كلمات ، لاحقاً، جاء إتصال قصير من ملاذ، مجرد سلام وسؤال عن الصحة، لكنه كان كافياً لإشعال شعور دافئ في قلب عليّ.

جلس بعد المكالمة، يتذكر كل التفاصيل: صوتها، نبرة صوتها، حتى التردد الطفيف الذي إختبأ خلف كلماتها كظل خافت لا يراه الا القلب ، وفي النهاية، أدرك عليّ شيئاً أساسياً: الإحترام والصمت

والإهتمام الصادق يمكن أن يكون أثقل من أي إعتراف بالكلمات، وأكثر عمقاً من أي علاقة يمكن أن تُبنى على التصريحات ، شيئاً بدأ بصمت، سيكبر بصمت، وسيظل أثقل من أي كلمة يمكن أن تُقال لكن شيئاً لم ينتهِ داخل عليّ ، على العكس...شيءٌ ما بدأ.

تكرّرت اللقاءات المهنية في أروقة المحاكم ، ممراتٌ طويلة، جدرانٌ باهتة، وملفاتٌ ثقيلة تحمل مصائر الناس كانا يلتقيان صدفةً أكثر مما ينبغي، أو هكذا بدا الأمر الى عليّ نظراتٌ سريعة، تحيةٌ مقتضبة، ثم نقاشٌ قانوني يبدأ وكأنه ضرورة مهنية بحتة، لكن سرعان ما يتحول إلى مساحة مشتركة للفكر.

كانت ملاذ دقيقة في طرحها، لا تتكلم إلاّ بعد تفكير، تختار كلماتها بعناية ، وتملك قدرةً نادرة على رؤية الجانب الإنساني خلف النصوص الجامدة.

أما عليّ، فكان يجد نفسه منجذباً إلى هذا العمق الهادئ ونقاشاته معها لم تكن استعراضاً للمعرفة، بل حواراً حقيقياً تتلاقى فيه الأفكار دون صراع، ويُحترم فيه الصمت كما يُحترم الكلام وأحياناً، كان الصمت بينهما أطول من أي حديث

صمتٌ لا يبعث على الحرج، بل يمنح شعورًا غريباً بالأمان، كأن كلاهما يعرف أن الآخر يفهم دون شرح ، لكن داخل عليّ، كان الصراع يتصاعد.

هو الشاب الذي اعتاد أن يضبط مشاعره كما يضبط دفوعه القانونية، بدأ يشعر بأن قلبه يكتشف مساحة لم يكن يعلم بوجودها ، مساحة هشّة، غير مألوفة، ومخيفة قليلاً.

كان يسأل نفسه في لياليه الطويلة : هل ما يشعر به إعجاب...؟ ام احترام...؟

أم بداية شيءٍ لا يملك السيطرة عليه...أما ملاذ فكانت تحمل صراعها بصمتٍ أشد وهو الخوف من التعلّق كان يسكنها منذ زمن ، وكانت تعرف نفسها جيداً، إن فتحت الباب قليلاً ستفتحه بالكامل ، ولهذا، كانت تحذر من نفسها أكثر مما تحذر من عليّ.

كانت تراقب قلبها وهو يلين ببطء، وتوبّخه أحيانًا، وتذكّره بكل الأسباب التي تجعل الحذر واجباً ، ومع مرور الأيام، أصبح المكتب مسرحاً لحياةٍ صغيرة مشتركة بين عليّ وملاذ ، تفاصيل بسيطة لكنها ذات وزنٍ كبير ، وفي بعض الصباحات، كانت ملاذ تحضر

قهوتين وتدخل المكتب بهدوء، تضع الكوب قرب عليّ وهو غارق بين الملفات، دون أن تقول شيئًا ، يرفع رأسه، يلتقي نظره بنظرها فتبتسم ابتسامةً خفيفة، ويبادلها إبتسامةً صامتة تحمل شكراً أعمق من الكلمات.

كان عليّ، من جهته، يجد نفسه يفعل أشياء لم يعتد عليها ويترك لها دفتراً جديداً للرسم لأنه لاحظ مرةً أنها كانت ترسم خطوطًا صغيرة على هامش الأوراق أو كتاباً يعتقد أنه قد يهمها مع علامةٍ صغيرة على صفحةٍ ما كأنه يقول: توقفت هنا لأفكر بك وأحياناً، يترك ملاحظة قصيرة، كلمات تشجيع بسيطة، لكنها صادقة ، لم يكن أيٌّ من ذلك اعترافاً ولم يكن تجاوزاً كان مجرد اقترابٍ حذر، خطوة صغيرة من كلا الطرفين نحو منطقةٍ غير معروفة.

وكان كلاهما يعلم، في أعماقه، أن هذه التفاصيل الصغيرة وأخطر ما في الأمر لأنها لا تُنسى بسهولة ولأنها، ببطءٍ شديد كانت تبني شيئًا لا يمكن التراجع عنه دون ألم.

لم يكن الحديث بينهما يومًا مجرد تبادل كلمات لملء الفراغ، ولا محاولة عابرة لكسر صمتٍ ثقيل وكان حوارهما يشبه رحلة بطيئة في

طبقات الروح، كل سؤال يفتح بابًا، وكل إجابة تكشف نافذة تحدثا عن الحياة ليس كما تُروى في الكتب، بل كما تُعاش: بخيباتها الصغيرة، بإنتصاراتها الخجولة، وبالأحلام التي لا تُقال بصوتٍ عالٍ خوفاً من أن تنكسر.

كانا يتحدثان عن أحلام بسيطة، لا تشبه الأحلام الكبيرة التي تُعلن في الخطب أحلام تشبه فنجان قهوة يُشرب على مهل، أو مساءٍ هادئ يخلو من الضجيج وتحدثا عن العدالة، لا بوصفها نصوصًا قانونية جامدة، بل كقيمة إنسانية تُختبر كل يوم وعن القانون، ذاك السور الذي يحاول أن ينظّم فوضى العالم، لكنه أحياناً يعجز عن إحتواء تعقيد البشر.

كل نقاش بينهما كان يحمل طابع الفضول الصادق والإحترام العميق ولم يكن أحدهما يحاول أن ينتصر على الآخر، ولا أن يثبت تفوقه ، وكانا يستمعان أكثر مما يتكلمان، ويتوقفان أحياناً عند منتصف الجملة، كأن الصمت يكمل ما عجزت الكلمات عن قوله ، ولم يكن هناك شعور بالتسرع أو الإستعجال، كل لحظة كانت تُعاش بكامل حضورها، وكل إبتسامة كانت تُمنح بعناية كأنها عهدٌ غير معلن ، وفي أحد الأيام، بعد إنتهاء ساعات

العمل، جلسا معاً يراجعان ملفات قضية شائكة ، وكانت الطاولة مزدحمة بالأوراق، والعناوين القانونية الثقيلة والملاحظات المكتوبة بخطوط مختلفة، ومع كل ورقة تُقلب، كان علي يلاحظ شيئًا جديدًا في ملاذ، إهتمامها اللافت بالتفاصيل قدرتها على ربط الجزئيات الصغيرة بالصورة الكاملة، وصبرها الطويل أمام التعقيدات التي قد تُربك غيرها.

كانت تقرأ بهدوء، ترفع رأسها أحياناً لتطرح سؤالاً دقيقاً، أو لتشير إلى ثغرة لم تكن واضحة ، ولم تكن تتحدث كثيراً، لكن حين تفعل، يكون لكلماتها وزنٌ خاص كانت تشع بثقةٍ صامتة، لا صخب فيها ولا إدعاء.

علي، وهو يراقبها من خلف أوراقه ، كان يشعر بشيء يشبه الطمأنينة،كأن وجودها إلى جانبه يجعل أكثر القضايا تعقيداً أقل قسوة، وأكثر قابلية للفهم ، شعر أن ذهنه يصبح أكثر صفاءً حين تكون قربه ، وأن الأفكار بدل أن تتزاحم، تصطفّ بهدوء ، ولم يكن يعرف كيف يفسر ذلك لكنه كان يدرك أن الأمر يتجاوز الإعجاب المهني ولم يقتصر الوقت الذي جمعهما على العمل وحده ، شيئاً فشيئاً بدأت تتسلل إلى أيامهما لحظات بسيطة

خارج المكتب، وكأن الحياة نفسها قررت أن تمنحهما استراحة صغيرة.

جلسا ذات مرة على مقعد خشبي في حديقة صغيرة مجاورة لمبنى المحكمة والأشجار هناك لم تكن فخمة، لكنها كانت كافية لتمنح ظلاً خفيفًا وهدوءاً نادراً ، تناولا وجبة طعام سريعة، وتبادلا الضحكات على مواقف يومية في المكتب؛ عن ملفات تُنسى، أو موكلين يخلطون بين القضايا، أو حارس بوابة البناية الذي لا يتغير مزاجه أبداً ثم، دون تخطيط، بدأ كل منهما يحكي عن طفولته حكايات قصيرة، غير مكتملة، لكنها صادقة.

عن بيتٍ قديم، عن أول خيبة، عن معلم ترك أثراً لا يُنسى ولم تكن هناك كلمات كبيرة أو إعترافات درامية، لكن تلك الذكريات، وهي تُقال بهدوء، كانت تبني جسراً خفياً بينهما وفي أحيان كثيرة، كان الصمت يحلّ بينهما صمتٌ لا يحتاج إلى تفسير.

كانا يجلسان متجاورين، ينظران إلى المارة أو إلى الأشجار، وكلٌ منهما يشعر بأن الآخر موجود حقاً، لا بوصفه شخصاً عابراً، بل كحضورٍ مطمئن ، وكانت تلك الصمتات المشتركة لغةً لم يفهمها

إلا قلبيهما، إذ كانت أصدق تعبيرٍ عن التقارب المتبادل، وأعمق من أي حديثٍ يمكن أن يُقال.

لم تكن صمتاتٍ فارغة، بل كانت ممتلئةً بما يكفي من المعاني لتغني عن الشرح، وكأن المسافة بينهما تضيق في كل لحظة سكون، حتى تصبح النظرات بديلاً عن الكلمات، والأنفاس همسًا خفيًا لا يسمعه سواهما في تلك اللحظات، لم يكن أحدهما يحتاج إلى أن يسأل الآخر عمّا يشعر، لأن الإحساس كان حاضرًا بوضوحٍ يكفي ليبدد أي التباس ، وكانت الطمأنينة تتسلل بينهما بهدوء كأنها تعرف طريقها جيدًا إلى قلبيهما، وكأن هذا الصمت بالذات قد خُلق ليحمل ما عجزت عنه الحروف.

كانا يجلسان جنبًا إلى جنب، وكلٌّ منهما يدرك أن هذا السكون ليس برودًا ولا فراغًا، بل امتلاءٌ خفيّ، امتلاءٌ بالقبول والارتياح وبشعورٍ دافئٍ بأن وجود الآخر يكفي ولم يكن هناك ما يُثبت ذلك أو يُعلن عنه، لكن الحقيقة كانت واضحة في تلك اللحظات التي لا تُقاس بالوقت، بل بما تتركه من أثر ، وهكذا، تحوّل الصمت بينهما إلى مساحةٍ آمنة، يختبئ فيها القلق ويهدأ فيها التردد وتنمو فيها مشاعر لا تحتاج إلى إعلان، وصمتٌ كان أقرب

إلى اعترافٍ مؤجل، وإلى وعدٍ غير منطوق، يزداد عمقًا كلما طالت لحظاته، ويزداد صدقًا كلما اختارا أن يتركا الكلمات جانبًا كان ذلك الصمت أشبه بحديقةٍ سرّية لا يدخلها سواهما، يعرفان دروبها الخفيّة وإن لم يتبادلا خريطةً لها في كل نظرةٍ عابرة كانت تُقال جملة، وفي كل ابتسامةٍ محتشمة كان يُكتب سطر، حتى غدا ما بينهما نصًا كاملًا بلا حروف ، لم يكونا بحاجةٍ إلى تفسير الارتباك الخفيف الذي يسبق اللقاء، ولا إلى تبرير السكينة التي تعقبه؛ فالأرواح حين تتآلف، تختصر الطريق وتستغني عن الشرح ومع مرور الأيام، صار الصمت عادةً جميلة، طقسًا خاصًا يشبه فنجان قهوة يُحتسى بهدوء في صباحٍ طويل ، يجلسان متقابلين وتتحرك التفاصيل الصغيرة حولهما—صوت الأوراق، ضوء النافذة، خفوت الخطوات—لكن ما يعلو فوق كل شيء هو ذلك الانسجام الخفي، كأن بين قلبيهما خيطًا رفيعًا يشدّ أحدهما إلى الآخر دون أن يُرى.

لم يعد الصمت فراغًا يُخشى، بل امتلاءً يُطمأن إليه ، امتلاءً بالثقة، وبالإحساس أن ما يُختبأ في الداخل مفهومٌ حتى دون أن يُفصح عنه. كانا يتركان الكلمات جانبًا لأنهما أدركا أن بعض

المعاني إذا نُطقت فقدت شيئًا من نقائها، وأن الاعتراف حين يُؤجَّل قليلًا يزداد رسوخًا، كما لو أنه ينضج في الظلّ قبل أن يرى النور.

وصار الصمت بينهما ليس غيابًا للصوت، بل حضورًا كثيفًا للشعور؛ حضورًا يجعل اللحظة أثقل من أن تُختصر في عبارة، وأصدق من أن تُحاصرها جملة. حضورًا يقول في هدوءٍ عميق: إن ما بيننا يكبر... حتى لو لم نقل شيئًا.

الضوء الباقي

نور يشرق في زوايا الروح

ذات يوم ، لاحظ عليّ أن ملاذ تبدو متعبة بعد إجتماع طويل ومضنٍ ، كانت ملامحها أكثر هدوءاً من المعتاد، وعيناها تحملان إرهاقاً لم تحاول إخفاءه ولم تقل شيئاً، ولم تشتكِ جلست فقط، تراجع بعض الأوراق دون تركيز،دون أن يلفت الإنتباه نهض عليّ وتوجّه إلى المطبخ الصغير في المكتب.

حضّر كوباً من الشاي كما إعتاد أن يفعل لنفسه، لكن هذه المرة كان مختلفاً، كان أكثر إنتباهاً للتفاصيل، الى درجة حرارة الماء وطريقة إمساكه بالكوب.

عاد ووضعه أمامها بإبتسامة هادئة، بلا كلمات زائدة ، رفعت ملاذ نظرها، تفاجأت للحظة، ثم إبتسمت.

جلست تشرب الشاي ببطء، وشعرت بدفءٍ لم يكن مصدره المشروب وحده، بل تلك اللفتة الصامتة التي قالت الكثير دون أن تنطق بحرف ، في تلك اللحظة، أدركت أن الإهتمام الحقيقي لا

يحتاج إلى ضجيج، وأن بعض الأفعال الصغيرة تترك أثراً أعمق من أي خطاب طويل.

ومع مرور الوقت ، أصبحت العلاقة بين عليّ وملاذ تشبه النخلة التي لطالما رسمها عليّ في دفاتره القديمة، ثابتة، صامدة، لا تستعجل النمو، لكنها تعرف طريقها نحو السماء ، ولم تكن علاقة معلنة ، ولا محددة المعالم، لكنها كانت واضحة في جوهرها ، كلٌ منهما وجد في الآخر توازناً هادئاً.

ملاذ رأت في عليّ مصدراً للسكينة، رجلاً لا يضغط ولا يطالب يحترم المسافات كما يحترم القرب ، وعليّ وجد ملاذ الشريك الذي يفهم صمته، ويقرأ ما وراء إبتسامته الصغيرة، دون أن يطالبه بشرحٍ أو تبرير.

وفي يومٍ ممطر، جلسا قرب نافذة المكتب، يشاهدان قطرات المطر تنساب على الزجاج كخطوطٍ شفافة ، كان صوت المطر خافتاً لكنه حاضر كإيقاعٍ ثابت للحظةٍ لا تتكرر ، وتحدثا عن الأحلام، لا بوصفها أهدافاً بعيدة، بل كقيمٍ يريدان الحفاظ عليها.

تحدثا عن الحياة التي لا تسير بسرعة، لكنها تمضي بثبات، عن القناعة، وعن معنى أن يجد الإنسان مكانه دون صراع ، ولم يكن

في ذلك المشهد أي شيء رومانسي صريح، لا إعترافات ولا وعود لكن كان هناك شعور أعمق من الرومانسية المباشرة، شعور بالإرتباط الروحي، بالرفقة التي تفهم بلا كلمات، وبالطمأنينة التي تجعل الأيام العادية أكثر إشراقاً.

كان كل لقاء بينهما درساً في البراءة، وفي الإحترام، وفي فن الإصغاء للآخر ، ولم يكن عليّ بحاجة إلى كلمات ليشعر بالإمتنان لوجود ملاذ في حياته، ولم تكن ملاذ بحاجة إلى كلمات لتعرف أن عليّ يرى تفاصيلها الصغيرة ويقدّرها.

وكان عليّ، في ختام كل يوم، يعود إلى وحدته ويكتب إلى ملاذ قصيدة ، وأحياناً قصيرة، كخاطرة سريعة، وأحياناً طويلة، متشعبة كأفكاره ولم يكن يهمه طولها أو وزنها، بقدر ما كان يهمه أن تكون صادقة نابعة من قلبٍ لم يتعلّم بعد كيف يخفي شعوره...؟

ومع مرور الأيام، تكدّست تلك القصائد ، وأصبحت كأنها جبلٌ من الحروف والخيالات، يملأ زوايا قلبها وروحها، حتى وإن لم تقرأها كلها.

كانت تشعر بها، تحسّ بحضورها، وتعرف أن كل قصيدة لم تكن مجرد كلمات، بل لحظة من حضوره الهادئ في حياتها...حضور لا

يفرض نفسه، لكنه لا يُنسى ، وفي كل صباح، كان عليّ ينهض قبل أن تستيقظ المدينة تمامًا الضوء الأول كان يتسلل بخجل من خلف الستائر، كأنه يخشى أن يوقظه من حلمٍ جميل.

ينهض بهدوء، يغسل وجهه، ثم يحمل فرشاته وألوانه الزيتية، تلك الأدوات التي صارت امتدادًا لروحه أكثر من كونها أدوات رسم ولم يكن يمانع أن تتلطخ يداه أو ملابسه بالأصباغ، بل كان يرى في كل بقعة لون توقيعاً صادقًا، اعترافاً لا يحتاج إلى شهود يجلس أمام القماش الأبيض طويلاً ، ولا يبدأ بالرسم فوراً.

كان يتأملها في خياله أولًا: ملامحها حين تصمت، إنحناءة رأسها وهي تقرأ، نظرتها حين تفكر بعمق، وإبتسامتها التي تأتي دون إستئذان ، وكأن شيئاً ما يفيض داخله، يبدأ بسكب الألوان كما يسكب الشعر في قصيدةٍ لا يعرف نهايتها ، ضربات فرشاة مترددة أولاً، ثم أكثر جرأة.

خطوط حمراء تشبه نبض القلب، ظلال خضراء كطمأنينةٍ مكتسبة، وأزرق سماوي يتراقص على القماش كحلمٍ مفتوح كانت اللوحة لا تكتمل فجأة، بل تنمو ببطء، كما ينمو الحب الحقيقي: خطوة بعد خطوة، طبقة فوق أخرى، حتى تبدأ بالنبض

حتى يشعر أن شيئًا حيّاً صار أمامه وفي كل مساء، كانت مفاجأته تنتظرها ، أحياناً لوحة جديدة، وأحياناً قصيدة طازجة ما زالت رطبة بالحبر والمشاعر ، كانت تأخذها بين يديها، تقرأ الكلمات ببطء، لا تمرّ عليها مرور العابر، بل تعيشها كلمة كلمة ، ترى نفسها في الاستعارات، وتلمس صوته بين السطور ، وحين تنظر إلى لوحاته، كانت تشعر وكأنها ترى جانباً منها لم تكن تعرفه جانباً رآه هو قبل أن تراه .

كانت تضحك أحيانًا من عفوية بعض التفاصيل، وتبكي أحياناً أخرى حين تصيب الكلمات موضعاً حساساً في قلبها لكنها، في كل مرة، كانت تشعر بالإمتنان الذي لا يُقال، ولا يحتاج إلى تفسير ، إمتنان لذلك الحب الذي لم يطالبها بشيء، والذي عبّر عن نفسه بالفن والكلمات، لا بالضغط ولا بالوعود الكبيرة وهكذا، أستمرّ عليّ ، يومًا بعد يوم...لا يملّ، ولا يكلّ...

كأن الرسم والكتابة صارا طقساً يومياً، صلاة صامتة، أو محاولة دائمة لفهم ذاته من خلالها ، صارت قصائده ولوحاته بمثابة قصة صغيرة تُحكى في صمت، عن عشق نقي، وحبٍ بريء يتغلغل في تفاصيل الحياة اليومية، عن روحين جمعتهما القصيدة واللون قبل

الكلمات المباشرة والنظرات الواضحة ، وفي لحظات الصمت الطويلة، حين لا يكتب ولا يرسم، كان كلٌ منهما يشعر بأن شيئًا أكبر يربطهما ، شيئاً لا يمكن قياسه بالساعات أو الأيام ولا بالكلمات المنطوقة أو المكتوبة.

كان رابطًا من نوعٍ آخر؛ رابطًا روحيًا يتسلل بهدوء إلى كل تفاصيل وجودهما ، ينبع من احترامٍ عميق، ومن تقديرٍ صادق لكل فكرة، لكل اختلاف، لكل ابتسامة صغيرة، ولكل لحظة حضور صامت.

كان الحب بينهما يبدأ صغيراً، خفياً، كنبعٍ في عمق الأرض ، في فنجان قهوة، في قصيدة تُكتب ليلاً، في لوحة تُنجز فجراً ثم، دون ضجيج، كان ينمو ويتحول إلى قوة هادئة، مستقرة، لا تهزّها الشكوك بسهولة، ولا تُخيفها الأسئلة الصعبة بل تمنحهما القدرة على مواجهة ضغوط المهنة، وصعوبة الأيام وإختبارات القدر المفاجئة.

مرت الأشهر...وكل يوم كان يحمل معه جزءاً من الفرح، وجزءاً آخر من القلق ، تغيّرت المدينة حولهما وجوه أختفت، وأخرى ظهرت ، شوارع فقدت رائحتها القديمة، وأماكن لم تعد تشبه

نفسها ، حتى الزمن بدا وكأنه يسرع أحياناً ويتباطأ أحياناً أخرى لكن الرابط بين عليّ وملاذ بقي صامداً ، كشعاعٍ خفي لا يُرى لكنه لا يختفي ، مرّ من خلال ضوضاء الحياة وصخبها، دون أن يتكسر وفي صباح يومٍ مشمس، وقف عليّ أمام المحكمة ذاتها التي شهدت جزءًا كبيرًا من حياته اليومية.

المكان نفسه، لكن الإحساس مختلف ، كان الصمت من حوله لا يشبه أي صمتٍ عرفه من قبل، صمتٌ ثقيل، محمّل بالذكريات الهاتف الأرضي القديم، الذي كان يومًا ما سبباً لبداية كل شيء لم يعد موجوداً ، كأن الحياة حاولت أن تمحو أثر أي تقارب، أن تعيد ترتيب المشهد كما لو لم يحدث شيء ، لكن الذكريات لم تُمحَ وكانت حاضرة في قلبه، في تفاصيل المكان، في خطواته وهو يعبر الممرات ، وقف هناك، يتنفس بعمق، ويعرف في داخله أن ما عاشه لم يكن وهمًا وما جمعه بملاذ لم يكن عابراً بل كان تجربة كاملة، ناضجة، تركت أثرها فيه إلى الأبد...

ربما تغيّرت الظروف...

ربما تباعدت الطرق...

لكن بعض العلاقات لا تُقاس بالنهايات، بل بما تتركه في الروح وعلاقة عليّ وملاذ كانت من ذلك النوع : علاقة لا تصرخ، لا تطلب الإعتراف، لكنها تبقى...كنقطة ضوءٍ ثابتة في ذاكرة القلب، لا تنطفئ مهما طال الزمن ، ولم تصبح الحياة أخفّ لكنها أصبحت أكثر وضوحاً.

لم يعد الألم أقل، لكنه صار مفهوماً، قابلاً للتأمل، كجرحٍ يعرف صاحبه سببه فلا يضيع في الحيرة ، وكل شيء بدا أكثر حدّة أكثر صفاءً ، وكأن قلب عليّ أكتسب قدرة جديدة على القراءة؛ ليس قراءة الكتب والملفات، بل قراءة اللحظات الصغيرة ، تلك التي كانت تمرّ سابقاً دون أن تُسجَّل في الذاكرة ، صار يرى ضحكة ملاذ حين تكتشف فكرة جديدة، ليس كضحكة عابرة بل كإشارة حياة.

يرى طريقة مرور يديها على الطاولة، ذلك المرور الخفيف الذي يشبه الطمأنينة، وكأنه لمسٌ صامت للأشياء كي تبقى في مكانها يراقب كيف ترتّب أوراقها بعناية شبه طقسية، كيف تعيد محاذاة الزوايا، وتراجع العناوين، وكأن النظام في الخارج محاولةٌ لتهدئة الداخل ، حتى صمتها صار مفهوماً لديه، يعرف متى يكون

تفكيراً ومتى يكون تعباً، ومتى يكون مجرد حاجة إلى الهدوء ، وكان يشعر أن قلبه صار يقرأها كما تُقرأ الكتب المفتوحة: لا أسرار، لا زوايا مظلمة، فقط عمق يحتاج إلى صبر ، ثم جاء اليوم الذي لم يكن مفاجئًا، لكنه كان ثقيلاً منذ أن وُضع اسمه في التقويم الداخلي للروح.

اليوم الذي سيجمعهما للمرة الأخيرة، قبل أن تنتقل ملاذ مع أهلها إلى محافظة أخرى، وتتحول المسافة من فكرة مجرّدة إلى واقعٍ جغرافي لا يُمكن تجاهله ، كان يومًا مشبعاً بالوداع، حتى قبل أن ينطقا به.

كل شيء فيه بدا أبطأ من المعتاد: الخطوات، الوقت، الكلمات كأن الزمن نفسه قرر أن يمشي على أطراف أصابعه احترامًا لما سيحدث ، تراكمت الذكريات في ذلك اليوم كما تتراكم الغيوم قبل المطر: أشهر من اللقاءات القصيرة في ممرات المحاكم والرسائل التي لم تُكتب إلاّ بعد تفكير طويل، من اللوحات التي حملت أكثر مما تظهر، ومن القصائد التي كانت تقول ما لا يجرؤ الصوت على قوله.

جلسا في الحديقة الخلفية للمحكمة، تلك الحديقة الصغيرة التي لم تكن يوماً مكاناً مهماً لأحد، لكنها أصبحت لهما عالماً كاملاً الأشجار ألقت بظلالها الطويلة على الأرض، ظلال تشبه خطوط العمر حين تطول في المساء الطيور كانت تغني بلا أكتراث، وكأنها تعرف، أو كأنها لا تعرف شيئًا، وكلا الأمرين كان موجعاً بطريقته جلسا متقابلين، وبينهما فراغ صغير، فراغٌ لم يكن مسافة جسدية بقدر ما كان اعترافًا صامتاً بأن شيئاً ما سيتغيّر بعد هذه اللحظة الهواء في الغرفة كان ثقيلاً، لكن ليس ثقلاً مزعجًا، بل ثقلاً يذكّره باللحظة التي تنتظر الإعتراف، بثقل مشاعر لم يُعلن عنها بعد المكتب، المعتاد في صمته وروتينه اليومي، بدا مختلفاً ،الضوء الذي كان يتسرب من النافذة نصف المفتوحة صار أكثر وضوحاً يعكس على وجوههم تفاصيل دقيقة، شعاع خفيف على شعر ملاذ، ظل ناعم على زاوية عينها، إنعكاس الضوء على الأوراق المبعثرة على الطاولة ، حتى أصوات الخارج، خطوات المارة البعيدة صوت نسيم خفيف يداعب الستارة، صارت كلها ملاحظات دقيقة يلتقطها القلب قبل الأذن.

وجع الغياب

الأيام تنسج حكايات الاشتياق

تكلمت ملاذ أولاً مع علي... ولم تحاول أن تكون قوية أكثر مما هي، لم تحاول أن تخفي خوفها أو حماسها، بل تركت نفسها في هذه اللحظة صافية، بلا أي زينة للكلمات.

– قالت الى علي أتعرف...؟

لو لم يكن رقم خط الهاتف مختلفاً برقمٍ واحد...لما إلتقينا.

–قالتها وكأنها تروي حكاية قدر، لا مجرد مصادفة تقنية ، وكانت تعرف، وهو يعرف، أن هذا الرقم الواحد كان كل شيء: نقطة صغيرة على لوحة الزمن، لكنها قلبت مسار حياتهم بأكمله.

ابتسم عليّ إبتسامة بطيئة، حزينة، لكنها ممتنة ، إبتسامة تحمل ايام من الصمت، اشهر من الإهتمام غير المعلن، والمراقبة الخفية لكل تفاصيلها الصغيرة.

ألقى نظرة طويلة على وجهها؛ ذلك الوجه الذي حفظه قلبه عن ظهر قلب، كل تفاصيله: تعابير عينيها حين تتفكر، حركات شفتيها حين تتحدث، التوتر الخفيف في جبينها حين تكون قلقة

وحتى ابتسامتها الصغيرة التي غالباً ما تختبئ وراء الصمت كل شيء، حتى التغييرات الطفيفة التي لا يلاحظها أحد، كانت محفورة في ذاكرته ، ثم قال، بعد صمت قصير، كأن الكلمات خرجت بعد معركة داخلية طويلة :

– وربما لو كان الرقم متشابهاً تمامًا...لما فهمنا معنى المسافة ، جملته كانت أشبه باعتراف متأخر، إعتراف بنوع آخر من الحب: حب لا يقاس بعدم البعد فقط، بل بالمسافة التي تمنح القرب قيمته والغياب الذي يجعل كل لقاء أثمن من أي لحظة عادية ،إبتسمت ملاذ، إبتسامة لم تحاول أن تمنع الدموع، إبتسامة تحمل كل الألم كل الإمتنان، كل التعقيدات العاطفية التي تراكمت في قلبها منذ البداية.

أغمضت عينيها للحظة، وتركت دموعاً صغيرة صادقة، تنزل بلا مقاومة، تتسرب عبر وجنتيها، وتحمل معها كل شيء لم يُقال جلس عليّ صامتاً، يراقبها، يشعر بكل حركة، بكل نفس، بكل تردد في قلبها.

لاحظ الطريقة التي ترتجف فيها شفتاها قليلاً وكيف تتحرك يداها فوق الطاولة وكأنها تبحث عن شيء لتثبّت نفسها عليه ، الهواء في

المكتب صار أثقل، لكن هذا الثقل لم يكن مزعجاً، بل كان حضور المشاعر في كل زاوية ، صمتهم كان صاخبًا بأشياء لم تُقل مليئاً بالكلمات التي بقيت حبيسة القلوب، مليئاً بالحنين بالاحترام بالحب الصامت.

أخذ عليّ نفساً عميقاً، شعر ببطء قلبه ، بإيقاعه المختلف بإحساسه الذي أصبح مركزاً لكل شيء حوله ، تذكر كل المرات التي رأى فيها ملاذ تبتسم من بعيد، كل المرات التي سمع فيها صوت ملاك وضحكتها، كل المواقف التي رسمت في قلبه مساحةً لمشاعر لم يجرؤ على إعلانها ، ثم بدأ الحديث مرة أخرى ، بصوت منخفض هذه المرة، صادق يحمل كل ما بقي محبوسًا داخله: المسافة أحيانًا تجعل كل شيء أوضح، تجعلنا نرى الأشياء التي تجاهلناها عندما كنا قريبين جدًا، تجعلنا نعرف قيمة كل لحظة ،كل كلمة، كل إبتسامة.

إبتسمت ملاذ مرة أخرى، وغمضت عينيها للحظة أطول، كأنها تحاول إستيعاب كل ما شعر به عليّ، كأنها تريد أن تحفظ هذه اللحظة إلى الأبد في قلبها ، جلسا صامتين لفترة طويلة، يراقب كل منهما الآخر، كل نفس ، كل حركة ، وكل نظرة ثم قالت

ملاذ الى علي بصوت خافت، لكن مليء بالإحساس : أتعلم...أحياناً الصمت يكون أصدق من أي كلمات ، نظر إليها عليّ، وعرف أنها تقول ما شعر به أيضاً، لكنه لم يجرؤ على قوله صراحة.

– نعم...أحياناً الصمت أصدق من أي كلام، قالها وهو يبتسم بخفوت ثم جلسا معاً، يتبادلان الصمت، لكن هذا الصمت لم يكن فراغاً بل كان حواراً أعمق من أي كلمات ، كل شعور، كل دمعة، كل إبتسامة، كان يحمل معنى أكبر مما يمكن أن تحمله الحروف مع مرور الوقت، بدأت الرؤية تتوسع.

عليّ بدأ يلاحظ أصغر التفاصيل : شعاع الضوء الذي يلامس شعرها، حركة يديها على الطاولة، تنفسها البطيء، كل شيء أصبح لغة يفهمها قلبه دون الحاجة الى كلمات.

ملاذ أيضاً لاحظت الفرق ، وكيف أن حضوره أصبح يملأ المكان...؟

كيف أن صمته يوضح أكثر مما يمكن للكلمات أن توضحه...؟

كيف أن الإحترام والإهتمام يمكن أن يكونا أعمق من أي إعتراف...؟

وفي اللحظة الأخيرة، قبل أن يغادر كل منهما الغرفة، تبادلا نظرة طويلة، نظرة تقول أكثر مما يمكن أن تحمله أي كلمات ، وعرفت كل واحدة منهما أن شيئاً قد تغيّر إلى الأبد، وأن هذا الفراغ الذي كان بينهم لم يعد فراغاً، بل أصبح مساحة للحب الصامت للإحترام المتبادل، للفهم العميق دموعها لم تكن دموع ندم، ولم تحمل عتاباً، بل كانت دموعًا صادقة، تحمل كل الأيام والليالي التي امتلأت بالقصائد، اللوحات الصمت المشترك، وحتى اللحظات الصغيرة التي لم يُلتفت لها.

جلست ملاذ على المقعد المقابل الى علي ، وبينهما الفراغ نفسه الذي أصبح منذ البداية يشبه لغةً سرّية: لغة المسافة، لغة الاحترام لغة الحب الصامت ،كانت يداها ترتجف قليلاً حين وضعتها على حجرها، وعيناها تبحثان عن شيء لتتمسكا به، بينما قلبها كان يكتب سطوراً لا يجرؤ على نطقها.

-قالت ملاذ الى علي أخيراً، بصوت مكسور قليلاً، لكنه ثابت صوت يحمل سنوات من الصمت والمشاعر المكبوتة : أنا لم أكن أخاف من الحب... كنت أخاف من أن أفقد هذا الهدوء أنا لم أكن أخاف من الحب... لم يجبها علي فوراً...

كان يعرف أن أي كلمة إضافية قد تفسد التوازن الدقيق للحظة وقد تدمر كل ما بنوه في صمتهم المشترك طوال هذه المدة أنا لم أكن أخاف من الحب... اكتفى بأن نظر إليها، نظرة طويلة، نظرة شكر، نظرة وداع، نظرة تقول: أنا فهمت، أنا هنا، وأنا أقدّر كل ما بيننا.

جلسا صامتين لفترة طويلة، وكأن الزمن نفسه توقف، يراقب كل منهما الآخر ، كان يمكن سماع خفقان قلب كل منهما، تنفسهما المتزامن بشكل غير واضح ، ورفرفة خفيفة في الهواء من نافذة نصف مفتوحة. الصمت بينهما لم يكن فارغًا، بل كان ممتلئًا بكل ما قيل سابقاً وبكل ما لن يُقال أبداً.

أدرك عليّ، خلال هذه اللحظة الطويلة، أن كل التفاصيل الصغيرة أصبحت مهمة : حركة أصابع ملاذ على الطاولة، التردد في طرف شفتها حين كانت تحاول التحدث، إبتسامة خفية حاولت الإختباء، حتى صوت تنفسها عند كل شهيق وزفير.

كل هذه الأشياء كانت جزءاً من اللغة التي لم تحتاج لكلمات في هذه اللحظة، لم يتعانقا، ولم يتبادلا وعوداً ، لم يقولا إنهما

سيبقيان على تواصل، ولم يتحدثا عن المستقبل أو القدر الذي قد يجمعهما مرة أخرى.

كانا ناضجين بما يكفي ليعرفا أن بعض العلاقات لا تحتاج إلى ضمانات كي تكون حقيقية، أن الحب الحقيقي يمكن أن يكون موجوداً في صمت، ونظرة، ودمعة، وإبتسامة صغيرة ، بدأ علي يتذكر كل لحظة قضها مع ملاذ ، كل كلمات الصمت التي تبادلاها، كل لمسة صغيرة، كل مسافة بينهما تحمل معنى أكبر...

وشعر بنفس العمق، تذكر كيف أن كل إهتمامه وكل خطوة قام بها من أجلها، لم يكن مجرد واجب مهني، بل كان تعبيرًا صامتاً عن شيء أكبر: شيء ينبض داخل قلبه منذ زمن بعيد شيء لم يكن يعرف كيف يسميه بالكلمات.

حين قررا القيام، كان الوقوف ذاته فعل وداع ، خطوة إلى الوراء ثم خطوة أخرى، وكل خطوة كانت مثل قلب يبتعد عن قلب آخر لكنها لم تكن مليئة بالألم، بل كانت مليئة بالقبول.

نظرة أخيرة طويلة، ممتدة، تحمل كل ما لم يُقال، كل ما شعروا به كل الإحترام والحب الصامتشم أفترقا... ولم يلتفت أي منهما بعد الخطوة الأولى ، كانت الأقدام تتجه في اتجاهات متباعدة، لكن

داخل كل منهما بقيت اللحظة نفسها حية: كل التفاصيل، كل المشاعر، كل الصمت ، وكانت المدينة تمتلئ بألوان الغروب الباهتة، والهواء يحمل رائحة التراب والمطر القريب ، كل شيء حولهما بدا طبيعيًا، لكن داخل كل واحد منهما، كانت هذه اللحظة تحفر مسارها الخاص كأنها لوحة ستظل محفورة في الذكرى إلى الأبد.

جلس عليّ بعد مغادرة ملاذ ، يحدق في الفراغ الذي تركته، يشعر بكل شيء، يتذكر كل التفاصيل الصغيرة : إبتساماتها، دموعها صمتها كلماتها القليلة ، كان يعلم أن هذا الوداع ليس نهاية، بل فصل جديد من فهمهما لبعضهما البعض، ممتد بصمت الاحترام والحب غير المعلن.

أما ملاذ، فقد عادت إلى مكانها، وجلست تتأمل الفراغ الذي كان يجمعهما، تتذكر كل شيء، وتدرك أن المشاعر الحقيقية لا تُقاس بالكلمات ، بل باللحظات الصامتة، بالإحترام، بالهدوء الذي أصبح جزءاً من قلبها.

كانت دموعها الأخيرة، دموع هدوء، دموع تقدير، دموع صمت ودموع لا تحاول أن تُغيّر شيئاً، ولا تطلب شيئاً، بل تحمل كل ما

كان وما سيكون، كل شيء بلا حاجة للإعتراف، كل شيء بلا وعود، كل شيء حقيقي بلا أي ضمانات ليس قسوة، بل إحتراماً للحظة كما هي وبعد ذلك اليوم، لم تختفِ ملاذ من حياة عليّ فجأة.

لم تختفِ ككائن مادي، لم تختفِ من المكتب أو من الهاتف، لكنها بقيت حاضرة في كل شيء آخر، في التفاصيل الصغيرة التي غالباً ما يمرّ عليها الإنسان دون أن يلاحظها، لكنها تبقى محفورة في القلب في لوحاته، التي لم يعد يرسمها بنفس الاندفاع الذي عرفه سابقًا بقيت روحها موجودة ولم تعد ألوانه تنفجر كما في الأيام الأولى لكنها أصبحت أعمق أكثر هدوءاً، أكثر فهماً للضوء والظل كأن كل ضربة فرشاة تحمل صمتاً من لحظاتها معه.

كانت ملاذ موجودة في كل خط رسمه ، في كل لوحة تاه فيها بين الألوان، في كل تفاصيل دقيقة لم يُسجلها سوى قلبه وفي قصائده صار حضورها أقل صخباً، لكنه أصدق صارت الكلمات تتنفس بهدوء، أقل شوقاً، وأكثر فهماً، تحمل صدى اللحظات التي عاشها معها، وكل حرف أصبح مزيجًا من تذكرها واحترامه لها ولم يعد يحاول أن يُعيدها أو يُصوّرها، بل كان يحاول أن يعيش أثرها

أن يتعلم منه، أن يسمح لها بأن تكون جزءاً من داخله بلا محاولة للإمتلاك وبقيت كأثرٍ لا يُمحى، أثر يرافقه كظلٍ لطيف: لا يوجع دائمًا لكنه لا يُنسى وفي بعض الليالي، حين يجلس عليّ بمفرده في شرفة منزله، يراقب السماء المظلمة المليئة بالنجوم، يجدها هناك، في صمتها، في ضوء القمر الذي يلامس وجهه، في نسيم الليل الذي يلامس يده، في كل شيء صغير يذكّره بها كحقيقة صغيرة تعلّمها : أن بعض الناس لا يأتون ليبقوا، بل ليعلّمونا كيف نحب دون إمتلاك، وكيف نودّع دون أن نخسر أنفسنا وكان ذلك...كافياً.

جلس عليّ صامتاً طويلًا بعد رحيلها، ينظر إلى الفراغ أمامه، لكن هذا الفراغ لم يكن فراغًا فعلياً...كان إمتلاءً لا يُحتمل، إمتلاءً بكل ما كان، بكل ما لم يُقل، بكل ما يُذكر من ضحكتها، من نظراتها، من أصغر التفاصيل التي كانت تصنع لحظاتهما المشتركة مميزة.

كانت أصداء ضحكتها تتردد في أذن قلبه: ضحكتها الصغيرة حين تفاجأتها فكرة مضحكة، حين كانت تبتسم بلا سبب، حين كانت تضحك من مفاجأة طفيفة ، صوتها حين ينطق اسمه بلا

قصد، حين كانت تحاول ترتيب الكلمات قبل أن تقولها، كما لو أن كل كلمة تحتاج لتقدير قبل أن تُنطق ، الوقفات الصغيرة قبل أن تتحدث، التردد الخفيف، الحركة البسيطة ليدها فوق الطاولة كل شيء كان مسجلاً في داخله بدقة ، كأن قلبه أصبح آلة تسجيل دقيقة لكل لحظة.

تذكّر عليّ المكان كله، وكأنه تغير بعد رحيلها: المقاعد، الأرض الأشجار، حتى الهواء ،كل شيء بدا وكأنه يحمل توقيعها، شاهداً صامتًا على قصة لم تُعلن للعالم، على حب لم يُصرح به، على احترام متبادل أكبر من أي كلمات ، كانت قصة حب نقي، لم تُعلن يومًا، ولم تحتاج إلى أعتراف ولم تكتب الصحف عنها، ولم تُروَ في المجالس، ولم يُعلَّق لها صور في أي مكان ، ولم يكن هناك جمهور لم يكن هناك تصفيق، لكن أثراها كان أعمق من كثير من القصص الصاخبة.

كانت حقيقة، بلا صخب، بلا مظاهر، لكنها حقيقية أكثر من أي قصة أخرى ، في أيام الشتاء، حين تهب الرياح على المدينة، وكان المطر يطرق النوافذ، يجد عليّ نفسه مسترجعًا كل لحظة صغيرة معها : مرة كانت تضع يدها على نافذة المكتب لتراقب

المطر، مرة أخرى كانت تتحدث بهدوء عن فكرة جديدة في عملها، مرة كانت تضحك من موقف طفولي لم يتذكره أحد غيره. كل شيء أصبح خالدًا في داخله، كل شيء أصبح درسًا في الحب الصامت، في الوداع الصادق، في القدرة على الامتنان لشخص دون امتلاكه.

ومع مرور الوقت، أدرك عليّ أن تأثيرها لم يكن مجرد ذكرى، بل تحول إلى شيء حي في قلبه وفي كل لوحة يرسمها، في كل قصيدة يكتبها، في كل خطوة يخطوها في المدينة، يشعر بها بطريقة غير مباشرة: في الريح التي تمرّ من بين الأشجار، في ضوء الغروب على الأرض، في أصوات الحياة اليومية التي كانت تضحكه وتدهشه حتى اللحظات التي كان يجلس فيها وحده، لا يشعر بالوحدة بالكامل ، صمتها معه، أثرها في داخله، حضورها الذي أصبح جزءًا من تفكيره ووعيه، كان يعوض أي غياب جسدي ، كان يعلم أن الحب الحقيقي لا يحتاج للوجود المادي المستمر، ولا يحتاج للاحتلال الكامل للحياة، بل يكفي أن يكون موجوداً في الأثر في الصمت ، في الذكرى، في الإحترام.

وفي النهاية، أصبح كل شيء صامتاً وجميلاً : القصائد، اللوحات الذكريات، الصمت، الفهم، الامتنان ، كل شيء متكامل، بلا ضجيج، بلا تصفيق، بلا جمهور.

كانت قصة بلا جمهور، بلا إثبات، لكنها تركت أثرًا لا يُمحى في قلبه وروحه، أثراً يملأ كل مساحة صمت، أثراً يصبح جزءاً من الحياة اليومية نفسها، جزءًا من الضوء والظل، جزءاً من هدوءه الداخلي، جزءاً من احترامه للحظة كما هي ، جلس هناك، يحدّق في الفراغ الذي تركته وراءها.

كان الفراغ واسعاً، لكنه لم يكن خالياً في داخله، كانت كل ملامحها، كل تفاصيلها الصغيرة التي اعتاد عليّ أن يلتقطها دون أن يُخبر أحد عنها حركة يديها حين تقوم الطريقة التي تعيد ترتيب حقيبتها قبل أن تمشي، النظرة الأخيرة التي لم تُقل فيها أي كلمة لكنها قالت كل شيء ، تلك النظرة التي حملت امتنانًا واحترامًا وشيئًا من الحنين، نظرة أرادت أن تقول : « كل شيء على ما يرام...لاحاجة للكلمات ».

جلس طويلاً، يشعر بالفراغ الممتلئ ، كل لوحة رسمها، كل خط على الورق، لم تعد مجرد تجربة فنية، بل كانت محاولة لفهم هذا

الشعور الغامض، ذلك الذي بدأ في قلبه منذ الأيام الأولى لهما معًا. وكل قصيدة كتبها لم تعد مجرد بحث عن جمال اللغة، بل كانت بحثاً عن معنى يليق بها، عن معنى يليق بملاذ، بالوجود الصامت الذي تركته في قلبه وروحه.

كل لحظة صمت مشتركة بينهما، كل ثانية لم يُنطق فيها أي حرف، لم تكن انقطاعًا عن الكلام، بل إكتمالاً له ، كل تفاصيل صغيرة : ضحكتها المخفية، حركة شعرها، طريقة تنفسها عند الشدائد أو عند الانشغال، كانت أجزاء من قصة أكبر من أي شيء ظنه يومًا مهمًا في الحياة.

قصة عن الحب الذي يبدأ خافتاً، كنبض أولي لا يُسمع، ثم ينمو ببطء، دون استعجال، حتى يصبح نوراً داخلياً، نوراً لا يبهت حتى حين تتغير الطرق، وتطول المسافات، وتختلف الظروف ، ظلّ جالساً بين جدران المحكمة القديمة، تلك الجدران التي شهدت صراعات البشر، خصوماتهم، وأحكامهم القاسية لكن في ذلك اليوم، شهدت شيئاً آخر: الحبّ الصامت، الاحترام، الصبر التقدير... تلك اللحظات التي لا تحتاج إلى إثباتٍ أو إعلان فكل زاوية في المكان، كل شقٍّ في الجدار، كل طاولةٍ قديمة، وكل

كرسي لم يعد يحمل فقط أوراق القضايا وملفات العمل، بل أصبح شاهدًا صامتًا على ما يحدث داخل قلبه.

كان يشعر أن المكان نفسه تغيّر، لا لأن الجدران تبدّلت، بل لأن نظرته إليها تبدّلت. صارت التفاصيل الصغيرة تنبض بمعنى خفي وكأنها تحفظ سرّه دون أن تبوح به ، حتى الضوء الذي يتسلّل من النافذة بدا أكثر رقة، كأنه يربّت على كتفيه مطمئنًا، ويهمس له أن ما ينمو في داخله ليس عابرًا.

لم يكن حبًا يطلب التصريح، ولا شعورًا يبحث عن تصفيق، بل كان سكونًا عميقًا يشبه جذورًا تمتدّ في الأرض بثبات. شيءٌ ينمو بهدوء، يتكاثر في المساحات الصامتة بين الكلمات، ويزداد رسوخًا مع كل لحظة انتظار. وكأن قلبه، دون أن يدري، بدأ يكتب قصة لا تُقرأ بصوتٍ عالٍ، لكنها تُعاش بكل ما فيها من صدق.

ظل النخلة

مرآة الصبر والسكينة

أغمض عليّ عينيه للحظة، وإسترجع صوراً من الأيام الماضية: صباحات المكتب حين كانت ملاذ تدخل بخفة، تحمل كوب قهوة أو ملفات صغيرة، ضحكتها الخجولة حين تصادفه بالنظر لحظات سكونهما جنباً إلى جنب أمام الطاولة، كل واحدة من هذه اللحظات كانت تتراكم في قلبه، تترك أثراً لا يُمحى.

تذكر المرات التي رآها فيها تكتب شيئًا في دفترها، مكرسة نفسها للصمت والتفكير ، كم كان يرغب أن يكون جزءاً من هذا الصمت، أن يفهمه، أن يلتقطه، لكنه كان يعرف أن هناك حدوداً لا تُعد للامتلاك وأن هذا الإحترام هو أثمن من أي كلام، أثمن من أي إعتراف ، أستسلم لعقله، وبدأ يسرد لنفسه كل لحظة صمت كل لحظة ابتسامة، كل لحظة دمعة صغيرة لم تُلاحظها، كل ضحكة طفيفة لم يسمعها أحد سواهما.

كل هذه اللحظات أصبحت لغة، لغة تفهمها الروح دون الحاجة إلى كلمات وحين فتح عينيه مرة أخرى، كانت الشمس تخفت

وراء المباني القديمة، والضوء المتسلل عبر نوافذ المكتب أصبح شاحبًا، لكنه أضاء الزوايا التي اعتادت ملاذ أن تجلس فيها وأعطى كل زاوية بعداً جديداً ، شعور غريب إجتاحه: أن كل شيء تغير، لكن في الوقت نفسه لم يتغير شيء، كأن العالم يراقب قصة لا تُكتب على الورق، لكن تُكتب على القلب.

جلس هناك لساعات، دون أن يتحرك، يتنفس ببطء، يستمع إلى أصوات المدينة البعيدة، إلى خطوات المارة، إلى حفيف الأشجار إلى طقطقة الأقفال القديمة، وكل صوت أصبح بمثابة تأكيد على أن الحياة مستمرة، وأن أثرها باقٍ، في داخله، في كل حركة، في كل فكر ، وتذكر كيف أنه بعد رحيلها، لم يترك المكان مجرد مكان بل ترك أثره أيضًا. كل لوحة، كل قصيدة، كل حركة صمت، كل لحظة تردد، كل إبتسامة...أصبحت جزءاً من سيرورة حياته اليومية جزءاً من فهمه للعالم، جزءاً من نموه الداخلي ، تساءل : هل هذا هو الحب الذي يدوم...؟

الحب الذي لا يحتاج إلى كلمات، لا يحتاج إلى شهادات، لا يحتاج إلى إثباتات...؟

الإجابة كانت واضحة: نعم...الحب الحقيقي يمكن أن يكون موجوداً في الفراغ والصمت، وذكرى النظرة الواحدة، وفي دمعة لم تُسكب إلاّ للقلب نفسه ومع الغروب، ومع آخر أشعة الشمس جلس عليّ طويلاً يشعر بكل شيء، يراقب الفراغ الممتلئ يستحضر كل التفاصيل الصغيرة، كل لحظة مشتركة، وكل أثر باقٍ في الداخل.

كانت المحكمة القديمة شاهدة على شيء مختلف : الحب الذي لا يُعلن، الاحترام الذي لا يُنطق، الصمت الذي يكمل الكلام النور الداخلي الذي لا يبهت، والفراغ الذي لم يكن فارغاً أبداً شهدت رجلاً يتعلم أن الحب الحقيقي لا يُقاس بعدد اللقاءات ولا بكمية الوقت المشترك، بل بالعمق الذي يتركه في الروح نظر إلى ظلال الأشجار الممتدة على الأرض.

كانت الظلال تتحرك ببطء مع حركة الشمس، كما تتحرك الذكريات داخل القلب ، لا تختفي فجأة، بل تتبدل مواقعها وتتغير حدتها، لكنها تبقى موجودة ، شعر عليّ، للمرة الأولى، أن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى حضورٍ دائم كي يبقى حيّاً وأن الصلة الروحية أعمق من الجسد، وأقوى من الجغرافيا، وأثبت من الظروف

الطارئة صلة لا تنقطع حين يغيب الصوت، ولا حين تتلاشى الرسائل ولا حين تصير الكلمات مجرد صدى بعيد حتى حين تصبح اللوحات مجرد ألوان ساكنة على القماش وحين تتحول القصائد إلى أوراقٍ محفوظة في أدراج الذاكرة يبقى القلب يعرف الحقيقة يعرفها دون شرح، دون منطق، دون برهان الحقيقة التي تعلّمها هناك، في ذلك اليوم الصامت، هي أن بعض العلاقات لا تأتي لتكتمل في الشكل التقليدي للحياة، بل لتكملنا من الداخل أنها لا تُمنح لتكون جزءاً من السيرة العلنية للإنسان، بل من تكوينه العميق، من وعيه بذاته وبالآخر.

نهض عليّ أخيراً، ليس لأن الحزن انتهى، بل لأن الجلوس طال بما يكفي ، خطا خطوات بطيئة، وكل خطوة كانت وداعاً جديداً لكن أقل ألماً من السابق ولم يشعر أنه فقدها، بل شعر أنه حملها معه بطريقة مختلفة طريقة لا تُرهقه، ولا تشده إلى الخلف، بل تجعله أكثر إتزاناً.

كان يعرف، وهو يغادر المكان، أن الحياة ستستمر وأن القضايا ستعود، والملفات ستتكدس، والمدينة ستزداد ضجيجاً ولكنه كان يعرف أيضاً أن شيئًا في داخله تغيّر إلى الأبد.

لم يعد يبحث عن الحب بوصفه إمتلاكاً ولا عن القرب بوصفه حضورًا دائماً،بل عن ذلك السلام الخفي الذي يتركه إنسان حين يمرّ في حياتك بصدق وفي عمق قلبه، حيث لا تصل الأصوات ولا الأحكام وبقيت ملاذ ليس كذكرى مؤلمة ولا حلمٍ منتهٍ بل كنقطة نورٍ ثابتة ، نورٌ يذكّره، كلما أشتدّ عليه العالم وأن الحب الصادق موجود وأن المسافة لا تستطيع أن تفصل بين روحين تعارفتا بعمق حتى لو أفترقتا في الطريق.

وهكذا، في ذلك الصمت الطويل لم يكن عليّ وحيداً كما بدا كان ممتلئاً بحقيقةٍ واحدة،حقيقةٍ سترافقه ما بقي من العمر: أن بعض القصص لا تنتهي... بل تتحول إلى معنى.

إفترقا...لكن الفراق لم يكن قطيعة ، ولم يكن إنطفاءً، ولم يكن تلك النهاية الحادة التي تُغلق الأبواب وتُسدل الستائر وكان أشبه بتحوّلٍ صامت، إنتقال من شكلٍ إلى آخر، من حضورٍ ملموس إلى حضورٍ أعمق، لا يُرى ولا يُلمس، لكنه يُحسّ في أدق تفاصيل الروح.

لم تكن نهاية علاقتهما مجرد لقاء أنتهى، أو طريقٍ تشعب عند مفترقٍ واحد بل كانت بداية لعلاقة من نوعٍ آخر، علاقة لا تُعرّف

بالكلمات ولا تُقاس بالأيام، علاقة روحية لا يعرفها إلاّ من أختبر ذلك الإتصال الخفي الذي يتجاوز حدود المكان والزمان ويتخطّى قوانين المنطق البسيط الذي أعتاد البشر أن يفسّروا به مشاعرهم ولم تكن الكلمات التي قيلت بينهما، ولا حتى تلك التي بقيت حبيسة الصدور، هي ما ترك الأثر الأعمق.

الأثر الحقيقي وُلد في الصمت ، في تلك اللحظات التي جلسا فيها متجاورين دون حاجة للحديث في نظرات العيون التي كانت تلتقي ثم تنسحب بهدوء، كأنها تخشى أن تفضح ما لا ينبغي قوله في إنحناءات الأرواح حين كانت تفهم بعضها دون شرح، ودون طلب ، كان في ذلك الصمت معنى أعمق من أي وعدٍ يمكن أن يُكتب وأصدق من أي عهدٍ يُقال.

كان إعترافاً غير معلن بأن ما بينهما أكبر من التسمية، وأصدق من التحديد، وأعمق من أن يُختصر في شكلٍ واحد من أشكال العلاقات البشرية المعتادة.

بعد ذلك اليوم الطويل كان علي ، بجسدٍ متعب لكن بروحٍ أكثر وعياً ، جلس على كرسيه ببطء، كما لو كان يلتف حول نفسه ليس هرباً من العالم، بل حمايةً لما تبقى من هدوءه الداخلي ، كان

المكان كما هو: الطاولة، الملفات، الجدران الصامتة ، لكن عليّ لم يعد هو نفسه الذي غادره في الصباح فتح درجاً جانبياً، وأخرج دفتراً قديماً ، ودفتراً لم يكن مجرد أوراق، بل مساحة صمت وذكريات ، دفتراً كان شاهداً على مراحل مختلفة من حياته، على أفكار لم تكتمل، ومشاعر لم تجد طريقها إلى الكلام ، أخرج قلماً كان قد نسيه على رفّ الزمان، قلماً لم يكتب منذ مدة، لكنه ما زال يحتفظ بقدرته على الإصغاء.

جلس طويلاً قبل أن يرسم... لم يستعجل الخطوط، ولم يفرض الشكل... ثم، دون تخطيطٍ واعٍ، بدأت تتشكّل نخلة...شامخة جذورها غائرة في قلب الصحراء، متشبثة بالأرض رغم قسوتها ساقها مستقيم، لا ينحني للعواصف، وأوراقها تتمايل مع الريح برقةٍ وهدوء، لا مقاومة فيها، ولا إستسلام نظر إلى الرسم طويلاً... رأى فيه نفسه... ورأى فيها ملاذ... ورأى فيهما معًا معنى البقاء دون إمتلاك، والثبات دون قسوة ، وتحت النخلة، كتب بحروف مرتجفة، ليس فيها ضعف، بل من صدقٍ بالغ : « بعض الأقدار لا تأتي لتبقى... بل لتعلّمنا كيف نبقى... كيف نحب بلا قيود.... وكيف نسمح للحياة أن تمرّ بنا... دون أن نفقد

روحنا...؟ » توقف عن الكتابة ولم يضف شيئاً شعر أن الجملة اكتملت كما يجب بلا زيادة ولا نقصان رفع عينيه نحو نافذة المكتب ، كان ضوء الشمس يتسلل بخفة، يمرّ من خلال الزجاج ويلاعب خيوط الغبار العالقة في الهواء.

بدت تلك الذرات الراقصة كأنها رسائل صغيرة من الماضي، تتحرك بلا اتجاه واضح، لكنها لا تختفي وفي تلك الحركة الخفيفة، رأى ذكريات متفرقة: إبتسامات لم تُنسَ... كلمات لم تُقال لكنها فُهمت... لمسات لم تكتمل لكنها تركت أثرها... وأحلاماً لم تتحقق، لكنها لم تذهب سدى... شعر بشيء يشبه السلام... ليس الفرح الصاخب، ولا الحزن الثقيل بل حالة وسطى نادرة... حالة فهم... ابتسم في صمت، إبتسامة لا تحتاج إلى سبب مباشر إبتسامة من نوعٍ خاص، لا تظهر كثيراً على الوجوه، لأنها لا تُولد إلاّ بعد تجربةٍ كاملة.

كانت إبتسامة من فهم درس الحياة: أن بعض اللقاءات لا تأتي لتملكها ولا لتُعلنها... ولا لتدافع عنها أمام العالم... بل لتترك أثراً خالداً في الروح... لقاءات تعلّمنا معنى الصبر حين لا يكون الإنتظار ممكناً ومعنى الحب النقي حين لا يكون الإمتلاك خياراً

ومعنى الثبات حين تهبّ العواصف من كل الجهات وفي تلك اللحظة، أدرك عليّ أن ما عاشه لم يكن نقصاً، بل إمتلاءً من نوعٍ آخر وأن الفقد أحياناً ليس خسارة، بل إنتقالاً إلى مستوى أعمق من الفهم وأن بعض الأشخاص لا يرحلون حقاً، بل يتحولون إلى جزء من وعينا، من نظرتنا للحياة، من طريقة إصغائنا للعالم ولم يعد يشعر بحاجة لأن يسأل : ماذا لو بقينا... ؟

ولا لأن يندم على ما لم يحدث كان يعرف، بصفاءٍ نادر، أن ما حدث كان كافيًا، وكان ضروريًا وكان صادقًا وهكذا، في ذلك المكتب الصامت... بين نخلة مرسومة وقصيدة غير مكتوبة... بين ضوءٍ عابر وذكرى ثابتة... واصل عليّ حياته... وهو لا يحمل حزن الفراق... بل يحمل معنى اللقاء.

ما لم ينتهِ

الأثر يبقى رغم مرور الزمن

جلس عليّ لحظةً طويلة يحدّق في الورقة أمامه ولم يكن ينظر إلى مجرد رسمٍ بالحبر، بل إلى انعكاسٍ كامل لذاته ، النخلة التي خطّها بيده بدت له كأنها مرآة صامتة ، جذعها القوي يمثل أيامه المتراكمة، تلك الأيام التي مرّت عليه ببطءٍ أحياناً وبقسوةٍ أحياناً أخرى، لكنها جميعًا كوّنت صلابته الحالية ، كل ورقة من أوراقها كانت لحظة عاشها، نظرة، صمتاً، قراراً، أو تراجعًا حكيماً ، أما الظلّ الذي تلقيه على الرمال، فكان أثراً لا يُرى بسهولة، لكنه باقٍ...أثرٌ امتدّ بعيدًا عن ضوضاء العالم الخارجي، عن أحكام الناس، عن صخب المدن والملفات والمواعيد ، ظلّ يتأملها كأنها كائن حي، وكأنها تعرف قصته دون أن يشرح لها شيئاً.

شعر، في تلك اللحظة، بأن قلبه، رغم المسافات التي فُرضت عليه ما زال نابضاً بذلك الاتصال الصامت الذي لا ينقطع ، إتصال لا يحتاج إلى رسائل، ولا إلى حضور جسدي، ولا إلى وعود مستقبلية ، كان إتصالاً يقوم على المعرفة العميقة، على الإعتراف

غير المعلن على الشعور الذي يستمر حتى حين يتوقف كل شيء آخر ، أحسّ بأن الحب، كما أختبره معها، لم يكن حالة عابرة ولا إندفاعاً مؤقتاً، بل تجربة مكتملة ، حب لا يعرف حدود المكان، ولا يتأثر بتبدّل الظروف... حب يمنح سكينة لا يمكن للوقت أن يمحوها...سكينة تشبه الوقوف في ظل نخلة في منتصف صحراء واسعة: لا شيء يحيط بك، لكنك لست وحيداً... أغمض عينيه قليلاً، ليس هروباً من الواقع، بل غوصاً أعمق فيه وبدأت التفاصيل الصغيرة تتقدّم إلى الواجهة كما لو أنها كانت تنتظر هذه اللحظة تحديداً تذكّر طريقة ملاذ في الضحك ليست الضحكة العالية، بل تلك الضحكة التي تبدأ من عينيها قبل أن تصل إلى شفتيها.

تذكّر كيف كانت تمسك بكوب القهوة، بكلتا يديها أحياناً كأنها تستعير منه دفئاً إضافياً، وكأنها تحمي لحظة هدوئها من التشتت تذكّر صمتها حين لا يكون الحديث ضرورياً ، ذلك الصمت الذي لم يكن ثقيلاً ولا محرجاً، بل ممتلئاً مكتفياً بذاته صمتٌ كان يقول: نحن هنا، ولا حاجة لأي شيء آخر الآن حتى تلك التفاصيل التي تبدو بلا أهمية للآخرين، عادت إليه بوضوح مؤلم

وجميل في آنٍ واحد وكيف كانت، في لحظات التعب أو التوتر ترسم حروف اسمها في الهواء بإصبعها، حركة لا واعية لكنها كانت تشبه محاولة تثبيت ذاتها في اللحظة وكيف كانت تُميل رأسها قليلًا حين تفكّر، وكيف كانت تنظر بعيدًا قبل أن تجيب وكأنها تبحث عن أدق صيغة للصدق.

كل تلك التفاصيل، التي لم تُسجَّل في صور، ولم تُكتب في رسائل صارت الآن جزءاً منه ،جزءاً من تكوينه الداخلي ولم تعد مجرد ذكريات تُستدعى عند الحنين، بل تحوّلت إلى طبقات عميقة في روحه، إلى عناصر تشكّل هويته الجديدة ،شعر عليّ، وهو لا يزال مغمض العينين، أن ما أخذه منها لم يكن فقداً، بل إضافة هادئة لا تُثقله، بل تمنحه توازناً ولم يشعر بأن قلبه انكسر بل شعر بأنه اتّسع.

تعلّم، من هذه التجربة، أن بعض العلاقات لا تُقاس بمدتها، بل بأثرها وأن بعض الناس لا يمرّون في حياتنا ليغيّروها بالكامل، بل ليضبطوا اتجاهها، ليعيدوا ترتيب بوصلة الداخل حين فتح عينيه من جديد، لم يكن الحزن أول ما شعر به كان هناك إمتنان لتلك

التفاصيل الصغيرة التي لم تضِع، ولم تتلاشى، بل بقيت حية فاعلة، قادرة على أن تمنحه قوة هادئة في مواجهة كل ما سيأتي... كل ما يفقد...كل ما يتغيّر...وكل ما ينتهي قبل أن يكتمل... كان يعرف الآن، بوضوحٍ نادر، أن الإنسان لا يُقاس بما يحتفظ به خارجياً، بل بما يدمجه في داخله وأن الحب الحقيقي، حين يكون صادقًا، لا يغادر أبداً بل يتحول إلى جزء من القدرة على الإستمرار.

وهكذا، جلس عليّ بهدوء أمام نخلة رسمها على الورق وفي قلبه نخلة أخرى جذورها في الذكرى وأغصانها في المستقبل ثم رفع عليّ بصره ببطء، ونظر خارج نافذة المكتب، إلى السماء الممتدة بلا نهاية لم تكن سماء في نظره، بل مساحة مفتوحة للمعنى امتدادٌ يشبه الروح حين تتحرر من ضيق اللحظة، وتكفّ عن مقاومة ما لا يمكن تغييره.

إبتسم مجدداً...ليس لإن الإنفصال كان سهلاً، ولا لإن الفراق تحوّل فجأة إلى فرح، بل لأنه أدرك أخيراً الحقيقة الكبرى التي لا تُدرك إلاّ بعد التجربة: أن الحب الحقيقي، حتى حين لا يكون ملاكاً دائماً على الأرض لا يزول ويظل متجذراً في الروح، كجذور

نخلةٍ عرفت العطش والريح، لكنها لم تقتلع يظل ظلاً لها، لا يُرى دائماً، لكنه حاضر حين تشتدّ الشمس وحين تتعب الروح من السير ظلًّا يحرس القلب من القسوة يهمس له في لحظات الوحدة: أنت لم تكن وحدك يوماً...وما عشته كان حقيقياً شعر عليّ أن ذلك الحب لم يكن وعدًا بالمستقبل، بل معنى للحاضر.

لم يكن عقدًا زمنيًا، بل تجربة أخلاقية وإنسانية علّمته كيف يكون صادقًا مع قلبه، كيف لا يخون شعوره خوفًا، ولا يقمع إحساسه بدعوى العقل علّمه أن الصدق مع الذات ليس ضعفًا، بل شجاعة نادرة.

جلس هناك، على كرسيه الخشبي، والدفتر مفتوح أمامه، والقلم بين أصابعه لم يكتب...ولم يكن بحاجة إلى الكتابة في تلك اللحظة... كان يشعر أن كل ما يمكن قوله قد قيل، وكل ما يمكن رسمه قد أرتسم في داخله.

مرت اللحظات ببطءٍ جميل، كنسيمٍ هادئ يتسلل من نافذة الروح، لا يقتحمها، بل يستأذن ، نسيم يعبر الذكريات واحدةً تلو الأخرى، لا ليبعثرها، بل ليعيد ترتيبها ويضع كل شيء في مكانه الصحيح: الفرح حيث يجب أن يكون... الألم حيث لا يؤذي...

الحنين كجسرٍ لا كقيد... والأحلام كأفق لا كعبء... شعر بأن الزمن توقف لحظة ليس في استعادة الماضي، ولا ليحبسه في الذكرى، بل ليمنحه فرصة نادرة لرؤية ما بقي... ما لم ينكسر... ما لم يفقد بريقه رغم كل ما تغيّر...رأى في نفسه إنسانًا لم يعد كما كان، لكنه لم يضِع الطريق ولم يفقد ذلك الخيط الخفي الذي يشده الى النور كلما حاول التعب ان يثقله كان يشعر ان شيئا فيه قد نضج بصمت كما تنضج الفصول ولم تعد الاشساء تمر به كما كانت بل صار يراها بعمق اكبر كانت التجربة قد صقلت روحه وفتحت بصيرته ورغم ما تبدل في داخله بقيت القيم التي تربى عليها ثابته تحرس قلبه من التيه وادرك ان البعد ليس ضياعا بل عبور هادىء نحو فسحة اكثر صدقا.

وجد في نفسه إنسانًا خرج من التجربة أقل اندفاعًا، وأكثر فهمًا أقل حاجة للتعلّق، وأكثر قدرة على الإحتفاظ بالمعنى وبينما بدأت الشمس تتراجع ببطء خلف الأفق، أرسلت أشعتها الذهبية الأخيرة إلى الداخل وقد لامست الورقة البيضاء على المكتب فأضاءتها ثم لامست قلبه...فأضاءته أيضاً كان شعوراً غريباً بالسلام...سلام لا يشبه الرضا السطحي، ولا يشبه الإستسلام

بل سلام الفهم ، سلام من أدرك أن الفقد، أحياناً، ليس خسارة بل إنتقالاً إلى مستوى أعمق من الوعي.

أدرك أن بعض العلاقات لا تنتهي حين تتوقف اللقاءات ولا حين تصمت الأصوات بل تبقى أبدية على مستوى الروح أبدية لأنها لم تُبنَ على الحاجة ولا على الخوف من الوحدة بل على نقاء المشاعر وعلى صدق القلب وعلى وفاءٍ صامت لما هو جميل في الإنسان.

لم يشعر عليّ أنه خسر ملاذ وقد شعر أنه تعلّم بها تعلّم كيف يحب دون أن يمتلك وكيف يترك دون أن يكره... ؟

كيف يواصل الحياة دون أن ينكر ما عاشه...؟

وحين أظلم الأفق تماماً خفت الضوء بقي في داخله نور صغير ثابت، لا يخفت ، نور الحقيقة التي لن تغادره ما دام حيّاً وأن الحب الصادق لا يُقاس بالبقاء...بل بالأثر.

ففي هذا الإنفصال، لم يكن عليّ خاسراً كما توهّم في اللحظات الأولى، بل كان مكتسباً على نحوٍ أعمق مما تخيّل مكتسبًا درساً لا يُدوَّن في دفاتر التعليم، ولا يُلقَّن في المحاضرات بل يُكتسب عبر

الخسارات الصامتة، عبر الرجفة الأولى للفقد وعبر ذلك الفراغ الذي يعلّم الإنسان من يكون حين تُنزع عنه المسكّنات.

أدرك أن الحب الحقيقي لا يذوي، لا يبهت، ولا يشيخ كما تشيخ الأشياء المرتبطة بالوقت ، هو لا يُقاس بالوجود الفيزيائي، ولا يُختزل في المسافة، ولا تُلغيه حركة سفر أو قرار أضطراري وان الحب الحقيقي، كما فهمه الآن، حالة روحية، إتصال خفيّ، تيار صامت يسري بين الأرواح مهما أبتعدت الأجساد الأرواح، حين تلتقي بصدق، تظل متصلة حتى وإن تفرّقت الطرق وتتشارك الحنين ذاته... تتنفّس الذكريات نفسها... وتحرس النور ذاته... ذلك النور الذي أشرقت به شمس الطهارة في قلبيهما يوم التقيا بلا أقنعة، بلا ادّعاء، وبلا خوف من الإنكشاف ، نور لا يخفت نور يشبه ظل نخلة شامخة في قلب الصحراء ثابتة الجذور، عالية الرأس لا تهزّها الرياح ولا يطالها عبث الزمان ولا يستطيع أي إنفصال مهما بدا قاسياً ،أن يمحو أثره ، وأغلق عليّ الدفتر ببطءٍ شديد ببطءٍ يشبه حركة من يضع طفلاً نائماً في سريره خشية أن يستيقظ كان يخشى أن يزعج اللحظة أو أن يتسرّب ذلك الشعور الغريب من بين أنامله قبل أن يستوعبه تماماً ، قبل أن يمنحه مكانه

اللائق في داخله أرخى جسده على كرسي المكتب وأسند ظهره إلى الخشب البارد لكن المفارقة أن داخله كان دافئاً على غير العادة ، دفء لا يشبه دفء الفرح الصاخب ولا دفء الإنتصار بل دفء الفهم... دفء المصالحة مع الذات... سلامٌ داخلي تسلّل إليه دون إستئذان...سلام لم يعرفه من قبل ولم يختبره في كل سنواته السابقة كأن روحه للمرة الأولى، توقّفت عن الركض وتوقّفت عن محاولة الإمساك بكل شيء وسمحت لنفسها أخيراً بالجلوس.

جلس عليّ هناك، لا يفعل شيئاً ومع ذلك كان يشعر أنه يفعل كل شيء يفهم... يستوعب...يراجع حياته لا بندم، بل بوعي كان يدرك الآن بوضوحٍ لا يختلط فيه الشك باليقين أن الحب الحقيقي لا يُقاس بطول الوقت ولا بقصر المسافات ولا بعدد اللقاءات ولا بقرب الأجساد.

بل يُقاس بعمق الأثر وبالتحوّل الذي يحدثه في الإنسان فالحب إن كان صادقاً، لا يتركنا كما كنّا ويُعيد تشكيلنا بهدوء...يُهذّب انفعالاتنا... يُخفّف حدّة قسوتنا... ويعلّمنا كيف نصغي... وكيف نصبر...؟

وكيف نكون أكثر إنسانية...؟

تذكّر عليّ كيف كان قبلها... وكيف أصبح بعدها...؟

لم يكن أفضل بمعنى التفوّق بل أصدق... أكثر وضوحاً مع نفسه أقل خوفاً من مشاعره وأقل حاجة للتظاهر بالقوة... أدرك أن بعض اللقاءات لا تأتي لتبقى بل لتُعيد ترتيب الداخل لتكشف لنا مناطق لم نكن نعرف بوجودها في أرواحنا تأتي لتعلّمنا كيف نحب دون إمتلاك وكيف نترك دون كراهية وكيف نواصل الطريق دون أن ننكر ما عشناه نهض ببطء... اقترب من النافذة...نظر إلى الأفق الذي بدأ يغرق في عتمة المساء لم يشعر بالوحدة... ولم يشعر بالفراغ... شعر فقط باتساعٍ غريب كأن قلبه أصبح أوسع من أن تحبسه المسافات وأهدأ من أن تُربكه الفكرة القديمة عن النهاية إبتسم إبتسامة خفيفة... ليست إبتسامة من انتصر... ولا إبتسامة من نسي... بل إبتسامة من فهم... فهم أن بعض القصص لا تُكتب نهاياتها بالحبر بل تُترك مفتوحة في القلب وأن بعض الأشخاص لا يغادرون حياتنا بل يغيّرون شكل حضورهم فيها وحين أطفأ نور المكتب وأغلق الباب خلفه كان يعلم في أعماقه أن شيئاً جميلاً لم ينتهِ...بل تحوّل وان الحب الحقيقي، كما

فهمه في تلك اللحظة، هو الصدق الذي يُزرع في القلب دون ضجيج، هو تلك الروح التي تبقى متصلة حتى في الصمت، حتى في الغياب، وحتى حين تفرض الحياة مسافاتها القاسية، والمسافات التي تبدو أحيانًا غير محتملة، يظل الحب الصادق أثراً لا يزول، أثراً متجذراً في النفس كما تتجذر شجرة في قلب صحراء قاحلة، لا يبهت ولا يضعف، ولا يستطيع أي ظرف خارجي أن يمحو أثره جلس عليّ هادئاً، رأسه بين يديه، يغوص في أفكاره وذكرياته كمن يغوص في بحرٍ لا نهاية له، بحر تتلاطم فيه موجات الماضي والآن والمستقبل، لكنه بحر دافئ، هادئ، يلفّه بحماية صامتة كان كل شيء حوله– الطاولة، الملفات، جدران المكتب – يشبهون صمتاً صلباً يوفّر له مساحة لإعادة ترتيب عمر كامل في لحظة واحدة.

مرّت أمامه تفاصيل صغيرة، لم يكن ينتبه لها في الماضي، لكنه الآن يراها جوهرية، ملأى بالمعنى والحنين: نظرة عابرة من ملاذ حين كانت تمرّ بجانبه في المكتب، لم تكن أكثر من لحظة، لكنها حملت صدقاً ونقاءً لم يشعر به مع أي شخص آخر. ابتسامة محتشمة كانت تُشرق على وجهها دون سبب ظاهر، لكنها كانت

تكفي لتملأ قلبه دفئاً. نبرة صوتها، الهادئة دائمًا، كانت كأنها موسيقى خفية لا يسمعها إلاّ قلبه، وصمتهما المشترك، ذلك الصمت الذي لم يكن يوماً ثقيلاً، لم يكن خاوياً، بل ممتلئاً... ممتلئاً بالاحترام، بالثقة، وبمعرفةٍ صامتة لبعضهما البعض.

كلّ تلك اللحظات الصغيرة كانت خيوطاً دقيقة نسجت رابطاً لا يُرى إلاّ بالروح، رابطاً عميقاً بين قلبه وقلبها، رابطاً لم يكن صاخباً، لكنه كان ثابتاً كجذر نخلة يمتدّ في الرمال، لا تهزّه الرياح ولا يحرّكه صخب الدنيا كان هذا الرابط أكبر من الكلمات أعظم من الوعود، وأصدق من أي شعور يُعلن بصوتٍ عالٍ ومع مرور الأيام، بدأ يكتشف أن ما ظنّه عابراً لم يكن كذلك أبداً كان يتذكّر كيف كانت تعدّل أوراقها بهدوء، كيف ترفع عينيها سريعاً ثم تخفضهما كأنها تخشى أن تُفشي نظرتها سراً ما، كيف كانت تقول اسمه بنبرةٍ تختلف قليلاً عن نبرتها مع الآخرين اختلافاً خفيفاً لا يكاد يُلحظ، لكنه كان كافياً ليوقظ في داخله ارتعاشة خفية حتى خطواتها في الممرّ كانت تترك أثراً، كأن الأرض تحفظ وقعها أكثر مما تحفظ وقع سواها.

صار يرى في التفاصيل ما لم يكن يراه من قبل؛ يرى في صمتها رسالة، وفي حيائها طمأنينة، وفي حضورها اتساعاً لا يشبه أي حضور ولم تكن تحاول أن تكون لافتة، ولم تسعَ يوماً إلى لفت انتباهه، ومع ذلك كانت أكثر ما يلفت انتباهه كأنها تعيش بعفويةٍ كاملة، فيما كان قلبه يقرأ في تلك العفوية فصولاً كاملة من معنى لم يُكتب.

أدرك أن الحنين لا يولد من المواقف الكبرى فقط، بل من تراكم اللحظات الصغيرة التي تمرّ بهدوء، ثم تستقرّ في الذاكرة كأنها لم تُخلق إلا لتبقى وقد أدرك أن الرابط الحقيقي لا يحتاج إلى اعترافٍ صريح، ولا إلى وعودٍ تُقال، بل يكفيه أن يشعر به الطرفان في عمقٍ لا تصله الضوضاء.

كان يشعر أن ما بينهما يشبه ضوءاً خافتاً في غرفةٍ واسعة؛ لا يصرخ، لا يبهر العيون، لكنه يكفي ليمنح المكان دفئه وطمأنينته ضوءٌ لا يخشى العتمة، لأنه لا يقوم على المظاهر، بل على يقينٍ داخليٍّ هادئ.

وهكذا، لم تعد تلك التفاصيل مجرّد ذكريات عابرة، بل صارت جزءاً من تكوينه، من طريقته في النظر إلى العالم، من تعريفه لمعنى

القرب ، صار يعرف أن بعض الروابط لا تحتاج إلى ضجيج لتثبت وجودها، وأنَّ أصدقَ المشاعرِ هي تلك التي تنمو في الصمت وتكبر في الخفاء، حتى تصبح حقيقةً راسخةً في القلب... لا تتزحزح، ولا تتبدّل، مهما تغيّرت الظروف وتعاقبت الأيام... والمشاعر لا تُعلن نفسها بضجيج الكلمات، ولا تحتاج إلى شهودٍ يصفّقون لها، بل تكتفي بأن تعيش بهدوءٍ عميق، كجذورٍ تمتدّ في تربة الروح، كلّما اشتدّت عليها الرياح ازدادَت ثباتًا وتشبّثًا بالأرض.

إنها لا تُقاس بعدد الاعترافات، ولا بوعودٍ تُقال على عجل، بل تُقاس بقدرتها على البقاء، على الصبر، على أن تظلّ نابضةً حتى في لحظات البعد والشكّ والانتظار. قد تمرّ الأيام دون أن يلحظها أحد، لكنها في الداخل تكبر، تتشكّل، وتنضج كما تنضج الثمار في مواسمها الخفيّة.

هي ذلك الشعور الذي يرافقك في تفاصيلك الصغيرة : في صمتك الطويل، في نظرتك الشاردة، في ابتسامةٍ لا يعرف سببها سواك شعورٌ لا يبهت مع الزمن، بل يزداد صفاءً كلّما تعرّض

لاختبارات الحياة. وإذا ما حان وقت ظهوره، لا يأتي صاخبًا، بل يأتي واثقًا ثابت الخطى، كحقيقةٍ لا تحتاج إلى برهان.

وهكذا، حين تتقلّب الأحوال وتختلف الوجوه وتتبدّل الطرق، تبقى تلك المشاعر كما هي... عميقةً، صادقةً، متجذّرةً في القلب، لا تعبث بها العواصف، ولا تغيّرها المسافات، لأنها لم تُبنَ على اندفاعٍ عابر، بل على صمتٍ طويلٍ علّمها كيف تبقى.

إعلان الروح

الروح تكشف ما تخفيه الأيام

كان علي جالس على كرسي المكتب، يحتضنه ذلك الصمت المليء بالسكينة، شعور بالطمأنينة لم يعرفه من قبل، كأن كل ما مضى أصبح مقبولًا، وكل فقدٍ تحول إلى معنى، كُسر القلب لم يكن نهاية، بل إعادة تشكيل.

فُتح الباب بهدوء، وكأن العالم بأسره توقّف كي لا يفسد اللحظة دخلت ملاذ دون أن تُحدث ضجيجاً، دون أن تكسر الصمت الذي كان يتغلغل في كل زاوية من المكتب ، خطواتها كانت مدروسة، كأنها تعرف أن لكل لحظة وزنها الخاص وكل ثانية لها مكانها، وكأن خطواتها نفسها تعرف متى يجب أن تُسمع، ومتى يجب أن تختفي، متى تصنع حضوراً حقيقياً...؟

ومتى تصمت كي يظل قلبه يحتفظ بمقدار مساحته الخاص...؟

بدت له في تلك اللحظة أشبه بملاك ظهر فجأة في توقيت دقيق ليس ملاكًا متكلّفاً، ولا حضوراً غامضاً، بل حضوراً طبيعياً ضرورياً، كأن المشهد لم يكتمل إلاّ بها ،كأن كل شيء من حوله

– الضوء، الطاولة، جدران المكتب الأوراق المفتوحة على الطاولة – انتظر قدومها كي يصبح كاملاً ، كل شيء كان في حالة استعداد لتلقي حضورها، وكل شيء بدا وكأنه يهمس: لقد جاء الوقت...لقد اكتمل المشهد الآن.

وقف عليّ للحظة، ينظر إليها، شعور غريب يملأ صدره : مزيج من المفاجأة، الامتنان، ودفء لم يشعر به منذ فترة طويلة ، لم يكن الفرح صاخبًا، ولا الإنفعال شديداً، بل شعورٌ داخلي عميق كأن روحه اعترفت للحظة أنها لم تبتعد يوماً عن روحها إبتسامة خفيفة أرتسمت على شفتيه، بينما كانت عيناها تلتقي عيناه، لم يكن هناك كلمات، ولا حاجة لها ، كان كل شيء يُحكى بنظرة بهدوء، بصمت، وفي نفس الوقت بكل وضوح : أننا هنا، وأننا لا زلنا نملك لحظة واحدة صادقة، رغم كل شيء.

خطت بضع خطوات إلى الأمام، وجلست بهدوء على الكرسي المقابل له ، وبينما جلسا، بدا لها والى عليّ أن الزمن توقف، كأن كل الساعات السابقة، كل الأشهر الماضية، وكل الرسائل اللوحات والقصائد التي كتبها لم تكن سوى تمهيد لهذه اللحظة...لحظة ليس فيها ضجيج، ليس فيها مواعيد، وليس فيها

كلامٌ يحتاج إلى شرح بل لحظة تتسع لكل ما تبقى من الحنين لكل ما هو جميل، لكل ما لا يُرى إلاّ بالروح.

جلسا هكذا، صامتين، تتقاطع فيهما الذكريات، وتلتقي فيهما المشاعر، وكأنهما يعيدان ترتيب كل ما مضى، ليصبح حاضرًا داخلياً ثابتًا، هادئاً، لا يهزه شيء، رابط لا يُكسر، رابط لم يعد يحتاج إلى تأكيد ، شعر عليّ بأن ملاذ لم تغادره أبداً، وأن المسافات التي فصلتهما لن تقلل من شيء ، وفي صمته، شعرت ملاذ بأن عليّ يحملها معه دائماً، وأن كل ما عاشوه معاً أصبح جزءًا من كيانهما، جزءاً من ما سيظلان عليه إلى الأبد ، وبين الضوء الذي يتسلل من النافذة، وبين الصمت الذي يلفهما شعر عليّ أن الحياة لم تنتهِ، وأن الحب الحقيقي، مهما أفترق جسدان يظل حياً، ثابتاً، نقياً، صامتاً، لكنه أعمق من أي شيء يمكن أن يُرى أو يُلمس.

كان يعرف، بلا شك، أن هذه اللحظة – حضورها، صمتها وجودها– ستظل محفورة في قلبه وروحه، وستظل قوة هادئة تمنحه القدرة على مواجهة كل ما يأتي، كل ما يتغير، وكل ما يحاول أن يفرق بين ما هو حقيقي وما هو مؤقت ، جلس عليّ على كرسيه

والدفتر المغلق أمامه، والقلم بين أصابعه بينما تتسلل أشعة الشمس الأخيرة من نافذة المكتب لتلعب على الأوراق والكتابة غير المكتملة.

كان يشعر بامتداد الوقت، كأن الساعات توقفت، وكأن المكان برمّته قد صمت إحتراماً للهدوء الذي ملأ قلبه ، كل شيء بدا طبيعياً، لكن داخله كان مختلفًا تماماً: مزيج من الذكريات، الحب الصامت، الشعور بالفراغ والإمتلاء معاً ، تذكّر التفاصيل الصغيرة: طريقة مرور يديها على الطاولة، صمتها حين كان الحديث لا يحتاج إلى كلمات، ابتسامتها الخجولة حين كانت تكتشف شيئاً جديداً، وحتى الطريقة التي كانت تمسك بها ، كوب القهوة وكأنها تستعيره من دفء اللحظة نفسها.

كل هذه التفاصيل، التي ربما بدت بسيطة يومًا، تحولت الآن إلى جوهر حياته، إلى قوة هادئة تمنحه صبرًا ونورًا داخليًا لم يعرفه من قبل ، وملاذ في صمتها احتلت كل الزوايا الصامتة في روحه وكأن خطواتها نفسها تدرس متى يجب أن تُسمع ومتى يجب أن تختفي وقف عليّ للحظة، مشدوهًا، وكأن روحه تعرفت على تلك الطاقة قبل جسده ، كانت أشبه بملاك ظهر في اللحظة الدقيقة التي

يحتاج فيها القلب إلى شيءٍ يفهمه دون كلمات، شيءٍ يمنحه الاطمئنان، وجودًا صافيًا وضرورياً ، وقف العالم عند تلك اللحظة: الورقة، الضوء صمت المكتب كل شيء بدا كلوحة تنتظر لمسة الفنان الأخيرة لكنه أكتمل بوجودها ، لم يكن هناك كلام، ولا حاجة له ، كل ما كان موجوداً كان هدوءهما المشترك، صمتهما الذي أصبح الآن مليئاً بالمعنى، مليئًا بالحضور، مليئاً بكل ما لم يُقال في الأشهر الماضية.

نظر عليّ إليها، وابتسامة صغيرة أرتسمت على شفتيه، ليس إبتسامة فرح أو انتصار، بل إبتسامة إدراك، إبتسامة من فهم : أن الحب الذي عاشاه لم يذهب، وأن الرابط بينهما لم ينقطع ، تبادلا النظرات، وكل نظر كان يحمل أكثر من ألف كلمة.

كانت ملاذ تنظر إليه بعينين تعكسان الصمت نفسه الذي يملأ قلبه، صمتًا يضم كل الذكريات، كل الرسائل، كل القصائد واللوحات، وكل اللحظات التي تركت بصمة في الروح ، جلسا هكذا، بلا كلام، بلا حركة، فقط حضور ، حتى أن الرياح التي تهب من النافذة بدا أنها تهتف للسكينة بينهما، لا تكسرها ولا تحركها، بل ترقص معها ، وكان كل شيء من حولهما جزءًا من

هذه اللحظة: الضوء الخافت أصوات خطوات بعيدة، ورائحة الورق القديم، ورائحة الحبر ورائحة نسيم الصحراء الذي دخل من الشباك وفي هذا الصمت قام عليّ باخراج دفتره مرة أخرى، وأخذ القلم ، لم يكتب، بل رسم خطوطًا عابرة على الورقة، خطوطاً تشبه الأفق خطوطاً تشبه مرور اللحظة، خطوطاً تشبه مسار الروح.

ملاذ راقبت حركاته، لم تتدخل، لم تُعلق، فقط كانت حاضرة تتنفس مع كل خط، مع كل حركة، وكأنها جزء منه ثم انخفضت عينا عليّ إلى الورقة، ورسم في الزاوية الصغيرة نخلة جذورها عميقة أوراقها تتمايل مع الهواء، ظلها يمتد نحو الداخل وكأنها تحرس كل ما هو مهم ، ابتسم في صمت، وكتب بحروف خفيفة : « الذي يحدث بين القلوب الصادقة لا يموت أبداً، حتى وإن أبتعدت الأجساد... » ، جلست ملاذ بجانبه، يدها تقترب قليلاً من يده دون أن تلمسه فقط وجودها قربه كان كافياً ، وأبتسمت هي أيضاً إبتسامة خافتة، طويلة، تحمل كل الحنين كل الامتنان، وكل الإدراك بأن ما بينهما شيء أكبر من الوقت أكبر من المكان أكبر من أي قانون يمكن للبشر وضعه ، مرت عقارب الساعة كنسيمٍ

هادئ، وكان كل منهما يكتشف في الآخر طبقات جديدة من المعنى: لم يكن الأمر متعلقًا بالحب الرومانسي فقط بل بفهم الروح بفهم ما يعنيه أن يكون شخص ما حاضراً في حياتك بلا شرط بلا توقع، بلا حاجة.

كان الحب هنا تصالحًا، هدوءاً، إتصالاً صامتاً، حضوراً حقيقياً شعوراً بالإمتلاء الداخلي حتى حين يكون العالم خارجياً صاخباً ومليئاً بالفوضى ثم إرتفع الضوء قليلاً، وملأت أشعة الشمس الأخيرة المكتب، كما لو أن السماء نفسها أرادت أن تؤكد صحة ما يشعران به.

كانت ملاذ ترى انعكاس الضوء على وجه عليّ، وكأنها ترى نفسه كما يعرفها قلبه، كما عرفها في كل الرسائل، القصائد واللوحات إبتسمت، وابتسم علي ، وكان كل شيء بينهما يتحدث بصمت أكبر من أي كلام يمكن أن يقوله الإنسان وفي هذا التلاقي، شعرا أن كل شيء مضى كان ضرورياً : كل لحظة صمت، كل لحظة ابتعاد، كل كلمة لم تُقال، كل لوحة لم تُكمل كل قصيدة بقيت غير مكتملة ، كلها كانت تتحرك لتكوّن هذه اللحظة، هذه الدقائق التي لم تُقاس بالساعات، هذه اللحظة التي شعرا فيها بأن

الروح يمكن أن تحب بلا امتلاك، وأن الإرتباط يمكن أن يكون أعمق من أي تقييد جسدي أو إجتماعي ، جلسا هكذا حتى بدأ الغروب يكسو المدينة بظلاله الطويلة وكانت الأشعة الأخيرة تضيف دفئاً للمكتب، ولقلوبهما معاً.

عرف عليّ أن هذه اللحظة ستبقى محفورة في داخله، إلى الأبد عرفت ملاذ أنها جزء منه، وستحملها معها أينما ذهبت وبين الصمت والضوء، وبين الذكريات والحاضر، شعر عليّ وملاذ أن الحب الحقيقي، حتى حين يُفرض عليه البُعد، يظل حياً، ثابتاً نقياً متجذراً في الروح، يرافقهما بصمت، يهمس لهما، يحميهما يمنحهما القدرة على مواجهة كل ما يأتي، كل ما يتغير، وكل ما يُبعدهما جسدياً لكنه لا يستطيع أبداً أن يُبعدهما روحاً.

وقفت أمامه، ثابتة كما لو أنّ الأرض إختارتها لتكون نقطة إتزانها لم تكن واقفة بجسدها فقط ، بل بروحها كاملة، بكل ما أختزنته من صمت، من خوف مؤجَّل، ومن شجاعة لم تختبرها من قبل عيناها كانتا مرآتين صافيتين؛ لا إرتباك فيهما، ولا محاولة للهروب بل يقين نادر، يقين لا يولد فجأة، بل يتكوّن ببطء، عبر مئات

اللحظات الصغيرة، عبر الصمت المشترك، عبر الفهم غير المنطوق عبر الحب الذي لم يطلب إذناً كي ينمو.

كان الضوء ينساب من النافذة خلفها، يرسم حولها هالة خفيفة كأنها ليست فتاة تقف في مكتبٍ بسيط، بل فكرة كاملة جاءت لتُقال أخيراً ، تنفست بعمق، ليس لتجمع شجاعتها، بل لتسمح للحقيقة أن تخرج دون أن تنكسر ، وبصوت خافت، لكنه حاسم، صوت يشبه الهمس الذي لا يُسمع بالأذن بقدر ما يُسمع بالقلب، قالت:

– علي لا أستطيع العيش بدونك ، ولم تكن الجملة صرخة، ولا توسّلاً، ولا إعترافاً متأخراً، بل كانت خلاصة زمن كامل ، فكل لحظة صمت، كل ابتسامة مخفية، كل خوف أُخفي وراء كلمات مهذبة، وكل مرة شعرت فيها بأن وجوده ليس مجرد إضافة لحياتها بل أحد أعمدتها الخفية التي تبني عليها أمانها وراحتها ، توقف الزمن عند تلك الكلمات ، ليس توقفاً مجازياً فقط، بل شعور حقيقي بأن الهواء نفسه تجمّد وأن الأصوات البعيدة أختفت، وأن العالم بأسره انكمش ليترك مساحة لهذه اللحظة وحدها شعر عليّ بدقات قلبه تتسارع، ليس من خوف، بل من امتلاء مفاجئ لم

يعرفه من قبل ،كأن قلبه كان غرفة ناقصة الأثاث وفجأة أكتشف أن هذه الجملة كانت الباب الذي يكملها، كل زاوية فيه، كل ركن لم يُستخدم بعد.

كان كل منهما ينظر إلى الآخر، وكل شيء بدا أكبر وأصغر في الوقت نفسه: أكبر لأن كل إحساس أصبح مضاعفاً أصغر لأن كل اللحظة كانت بسيطة جداً، صامتة جداً، حقيقية جداً ، وفي ذهن عليّ، بدأت تتدفق ذكريات طويلة : اللحظات التي جلستا فيها في المقاهي، الصمت الذي كان يملأ المسافات بينهما الكلمات الصغيرة التي لم تُلقَ أبداً، ضحكتها حين كانت تلمح شيئًا مضحكًا لكنها تختبئ، حركات يديها الدقيقة حين كانت تضع الأكواب أو الأوراق على الطاولة ، كل هذه التفاصيل، التي كانت تبدو صغيرة، أصبحت الآن ضخمة في قلبه، كأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتكتمل.

ملاذ أيضاً شعرت بأن كل جزء من وجودها يتردد في هذه اللحظة وكل خوف قديم، كل صمت قديم، كل حب مكبوت أصبح الآن مسموعاً بصوت واحد : صوت قلبها الذي لم تكن تسيطر على نفسها بالكامل، لكنها لم تكن تخرج عن حدودها ، كانت تلك

الجملة، ببساطتها، قوة جبارة، تحطم أي حاجز داخلي وتترك قلبها على الملأ...عليّ، يتنفس ببطء، يحاول أن يستوعب كل شيء حتى شعر بالهواء حوله، برائحة المكان، بلمس الأرض تحت قدميه،حتى أصوات الشوارع البعيدة، ورنين الهاتف، وخفيف حركة الأوراق على الطاولة، كل شيء صار ثقلاً إضافياً على قلبه، لكنه ثقل ممتع، ثقل يجعل اللحظة أبدية.

كانت نظراتهم تتبادل ببطء، وكأن كل عين تحمل ذكريات الأشهر الماضية : كل رسالة، كل مكالمة، كل إبتسامة، كل لحظة صمت كان عليّ يعرف، وملاذ ايظا ، أن هذه الجملة لن تُنسى أبدًا ،أنها لم تكن مجرد كلمات، بل كانت وعوداً صامتة، إعلاناً صامتاً عن كل ما لم يُقال طوال الوقت.

بدأت الدقائق تتحرك ببطء، لكنه شعر وكأن الزمن كله أصبح مترابطاً بهذه اللحظة ، كل شيء في العالم الخارجي اختفى من الإدراك ، بدون ضجيج، لا ضوء مبهر، ولا رائحة غير رائحة الهواء الذي يحيط بهما ، كل شيء أصبح داخلياً، كل شيء أصبح بين قلبين، يتنفسان نفس اللحظة ، أغمض عليّ عينيه للحظة، وأسترجع كل الصمت الذي شاركاه ، كل مرة تختار ملاذ الصمت

بدل الكلام، كل مرة أخفت خوفها خلف إبتسامة هادئة، كل مرة شعرت بأن وجوده ليس مجرد إضافة بل أحد أعمدة حياتها ، كانت هذه الجملة، أخيراً تثبت كل ما كان صامتاً طوال الوقت.

ملاذ منتظرة لم تُسرع بإعادة الكلام، لم تضغط عليه، فقط كانت صامدة، بثقتها المبهرة في هذه اللحظة ، وكل حركة من حركاتها الصغيرة كانت مثل سطر طويل في رواية لم تُكتب بعد، رواية صامتة، لكن كل سطر فيها مليء بالمعنى ، عليّ صامتًا، يراقبها شعر بأن قلبه ينفجر، ليس من الخوف، بل من الامتلاء؛ امتلاءٍ لم يختبره من قبل، امتلاءِ شعورٍ بأنه أخيراً أصبح يرى كل شيء واضحاً، وكأن ضباب السنوات انقشع دفعةً واحدة، وكأن كل لحظةٍ عابرةٍ من ماضيه كانت تمهّد لهذه اللحظة تحديداً، لتقف الآن أمامه مكتملة المعنى، مكتملة الضوء.

لم يكن ذلك وضوحاً عادياً، بل كان أشبه بانكشاف سرٍّ ظلّ كامناً في صدره طويلاً فجأةً، بدت التفاصيل الصغيرة التي لم يكن يلتفت إليها ، ذات يوم كأنها إشاراتٌ دقيقة، خيوطٌ غير مرئية كانت تنسج بهدوء هذا الاكتمال تذكّر خطواته المترددة، صمته الطويل، تساؤلاته التي بلا جواب، وحتى انكساراته التي ظنّها

خساراتٍ صافية، فإذا بها الآن أجزاء ضرورية من طريقٍ لم يفهمه إلا متأخراً.

أخذ نفساً عميقاً، كأنما يختبر صدره ليتأكد أنه ما زال قادراً على احتواء هذا الفيضان ، الهواء دخل إليه مختلفاً، أعمق، أثقل، كأنه يحمل معه اعترافاً لم يُكتب بعد ، شعر بأن الكلمات تتشكّل في داخله، تتجمع بهدوء، تتزاحم عند حافة صوته، لكنها توقفت هناك... عند العتبة بين القلب واللسان.

لم يكن صمته عجزاً، بل كان رهبةً من قداسة الشعور ، بعض الأحاسيس، حين تبلغ ذروتها، تخاف أن تُقال ، لذلك آثر أن يتركها تنضج أكثر في داخله، أن يمنحها مساحةً من السكون أن يحميها من ضجيج العالم ومن استعجال التعبير ، وفي تلك اللحظة، لم يكن بحاجةٍ إلى برهانٍ خارجي ولم يحتاج إلى تصديقٍ من أحد ، كان اليقين يكفيه ، يقينٌ هادئٌ لكنه راسخ، يقول له إن ما يشعر به ليس وهماً عابراً، بل تحوّلاً حقيقياً، نقطة فاصلة بين ما كانه بالأمس وما سيصير إليه غداً شعر ، بأن قلبه لم ينفجر... بل اتسع ، حتى صار قادراً على حمل ما لم يكن يتخيل أنه يستطيع حمله : الوضوح، الشجاعة، والاعتراف المؤجّل الذي

يعرف في قرارة نفسه أنه سيأتي، يوماً ما، حين تصبح الكلمات قادرةً على أن توازي هذا الامتلاء.

صار يشعر أن صدره يتّسع لأفكاره بدل أن يضيق بها، وأن الصمت الذي كان يخيفه بالأمس أصبح مساحةً للتأمل لا للهروب. لم يعد يرتبك أمام صدقه الداخلي، بل يتعامل معه كرفيقٍ ينضج معه ببطء، حتى إذا حانت اللحظة، خرج الاعتراف طبيعيًا... كأنه كان ينمو فيه منذ البداية.

ملتقى القلوب

كل نبضة تعانق نبضة اخرى

كل شيء بدا واضحاً، كل شيء أصبح معنى، كل شيء أصبح حبًا حقيقياً بلا أقنعة، بلا صخب بلا تصنع ، ملاذ شعرت بذلك، فابتسمت بخفوت، ابتسامة صغيرة جداً لكنها كاملة إبتسامة تحمل كل ما لم يُقل ، لم تكن دموع، لم تكن ضحكاً، ولم تكن صراخاً، كانت مجرد حقيقة صامتة، صمت أعمق من أي كلام في هذه اللحظة، لم يكن هناك مكان للزمن.

لم يكن هناك ماضٍ لم يكن هناك مستقبل، كان هناك فقط هذا الحاضر المشترك الذي يملؤه الحب، الإحترام، الصدق والإمتنان لوجود الآخر وكل ثانية استمرت وكأنها دقيقة، وكل دقيقة إستمرت وكأنها ساعة ، وكل ما حولهما كان يختفي، إلاّ هذا الفضاء الصغير الذي جمع قلبين أخيراً بعد كل الصمت، بعد كل الإنتظار، بعد كل القلق والإحترام والصبر.

مرّت في داخله كل الذكريات دفعة واحدة:القصائد التي كتبها ولم يجرؤ على تسميتها حباً ، اللوحات التي رسم فيها ملامحها دون أن يرسم وجهها.

الصمت الذي شاركاه وكأنه لغة خاصة لا يفهمها أحد سواهما وأن كل ذلك لم يكن تمهيدًا للفراق، بل تدريباً على الصدق.

إبتسم...إبتسامة خرجت من أعماقه دون تفكير، دون تخطيط إبتسامة صافية، خالية من الدفاعات، كأنها أول إبتسامة حقيقية يسمح لنفسه بها منذ زمن بعيد ، وحين تكلّم، إرتجف صوته قليلاً، ليس ضعفاً، بل ثقلاً من الصدق من حمل الحقيقة وهي تعبر الحنجرة لأول مرة :

– وأنا كذلك ياملاذ.

لم تكن إجابته رداً، بل إعترافاً موازياً ، إعترافاً بأنه لم يكن أقوى منها، ولا أكثر حذراً، بل كان يخشى فقط أن ينطق بما سيغيّر كل شيء ، بكلماته القصيرة تلك، وضع قلبه كاملًا على الطاولة، دون شروط، دون حسابات، دون محاولة للسيطرة على النتائج وقفا للحظة يتبادلان النظرات.

لم يعد شيء آخر موجوداً...لا المكتب، ولا الملفات، ولا المحكمة ولا المسافات، ولا المرافعات ، ولا ما قاله العالم أو لم يقله ، كانا فقط روحين تقفان أخيراً في منتصف الحقيقة، بعد رحلة طويلة من الدوران حولها.

في تلك النظرة...

-قالت عيناها: كنت أعرف.

-وقالت عيناه: كنت أنتظر.

لم يكن هناك إندفاع، ولا حركة مفاجئة، بل سكون عميق سكون يشبه ما يحدث قبل أن تستقر الأرض بعد زلزالٍ طويل سكون يعرف أن ما قيل لا يمكن التراجع عنه، وأن ما وُلد في تلك اللحظة ليس قراراً عابراً، بل تحوّلاً جذرياً في مسار حياتهما شعر عليّ أن العالم، للمرة الأولى، لم يعد يطالبه بأن يكون أقوى أو أكثر صبراً، أو أكثر صمتاً وشعرت ملاذ أن قلبها، أخيراً، لم يعد مضطراً للإختباء خلف العقل لم يتلامسا بعد، ولم يحتجا إلى ذلك فما حدث بينهما كان أعمق من الجسد، كان التقاء نادراً بين صدقين، بين خوفين تجرآ على الإعتراف، بين روحين قررتا أن تقولا الحقيقة مهما كان ثمنها.

وهكذا، في تلك اللحظة التي بدا فيها الزمن وكأنه نسي طريقه، لم يعودا شخصين يواجهان العالم منفصلين بل أصبحا معنى واحداً حقيقة واحدة...وبداية لا تشبه أي بداية أخرى وفي هذه اللحظة أختفى المكتب، اختفت الأوراق، أختفت الجدران، حتى الهواء نفسه بدا وكأنه تشبّع بالحب والسكينة ، لم تكن تلك مجرد كلمات قيلت، ولا إعترافاً عابراً، بل إعلاناً صامتاً عن إرتباطٍ روحي لا يحتاج إلى مزيد من التفسير.

في الأيام التالية، تحرّك علي بهدوء وحزم في آنٍ واحد وحضر معه عددا من الأشخاص المقرّبين إليه ، ممن يعرفون قيمة ما يُقدم عليه وغرضهم كان واضحاً : طلب علي يد ملاذ من أهلها ، ولم يكن الأمر استعراضاً ولا مناسبة شكلية، بل خطوة محسوبة نابعة من إحترام عميق، ومن إدراكٍ تام لمسؤولية ما إختاره قلبه.

كانت التحضيرات بسيطة، خالية من التكلف، لكنها مفعمة بالدفء ، كل شيء فيها يشبههما : هادئ، صادق، نقي وقفت ملاذ بجانب علي بكل وقارها، بإبتسامتها الخجولة التي لا تُظهر أكثر مما تُخفي، بينما كان كلاهما يدرك في داخله أن هذا اليوم ليس مجرد إجراء إجتماعي، ولا عادة متوارثة، بل إمتداد طبيعي

لقصة بدأت دون تخطيط، ونمت دون ضجيج ، تمت الخطوبة بحفاوة صادقة، فرحٌ بلا مبالغة، وإبتسامات خرجت من القلوب قبل الوجوه ولم يكن الفرح صاخباً، لكنه كان عميقاً مستقراً، كمن وجد أخيراً مكانه الصحيح ثم جاء يوم العقد ، لم يكن المكان عادياً، بل كان ذات المحكمة التي شهدت أول لقاء حقيقي بينهما ، المكان الذي جمع بين روحيهما قبل أن يجمع بين اسميهما ، الجدران نفسها، الممرات ذاتها، لكن الإحساس كان مختلفًا تماماً. كأن المكان نفسه يتذكّر، ويبارك ويشهد على إكتمال ما بدأ فيه ذات يوم.

جلس علي بجانب ملاذ، يمسك يديها برفق، يراقب كل حركة كل نظرة، وكل تفصيلة صغيرة، وكأنّه يحاول أن يحفظ اللحظة في ذاكرته إلى الأبد ، وكل شيء من حولهما بدا وكأنه يشاركهما الفرح، وكأن الصمت نفسه كان شاهدًا كريماً على هذا الإرتباط وقع العقد، وفي تلك اللحظة، ارتسمت إبتسامة هادئة على وجه ملاذ، ابتسامة لم تكن بحاجة إلى كلمات ، إبتسامة صادقة، نقيّة كأنها تقول للعالم كله دون أن تنطق : « ها قد تحقق ما كنا نحلم

به بصمت...وها نحن نبدأ معاً، بهدوء بثقة وبقلبين إختارا بعضهما دون تردّد » .

وهكذا، لم يكن إرتباطهما نهاية قصة، بل بدايتها الحقيقية؛ بداية مشوار تُبنى فيه الحياة على الإحترام، والسكينة، والحب الذي لا يعلو صوته، لكنه لا ينكسر أبداً...

بعد عقد الزواج بأسبوع...علي وملاذ يخطّان لبداية الحياة الجديدة مرت سبعة أيام منذ ان اتما عقد الزواج بينهما، سبعة أيام لم تكن مجرد أرقام على تقويم، بل كانت سبعة فصول صغيرة من التحضير النفسي والجسدي والروحي، من ترتيب البيت الداخلي والخارجي ومن مواجهة الأصوات المحيطة بالقلق، التوقعات، والتهاني المرهقة أحياناً ، وفي صباح اليوم الثامن، حين أشرقت الشمس بخجل بين السحب، جلس علي وملاذ في غرفة صغيرة، يمسكان أيديهما معاً، يحدقان في بعضهما كأنهما يكتشفان بعضهما لأول مرة، رغم أن أياماً من الحوار، النظر، والإهتمام قد سبقتها.

لم يكن علي مجرد رجل عادي، بل كان مزيجاً من الصبر والفكر والهدوء الذي يطمئن قلب كل من يحيط به أما ملاذ، فكانت روحها تتسع لكل مشاعر العالم ، حادة الذكاء وناعمة العاطفة

إمرأة استطاعت أن تحوّل تفاصيل الحياة اليومية إلى لحظات ملهمة من الجمال ومع أن كل منهما حمل في قلبه آمالاً كبيرة، إلا أن كل لحظة مع الآخر كانت تُبرز قدراً جديداً من التفهم والتقدير بحيث أصبح كل من علي وملاذ يشعر بأن العالم كله قد صغر ليصبح غرفة واحدة، وابتسامة واحدة، ولمسة يد واحدة.

الأسبوع الذي سبق الزواج كان مليئاً بالمفارقات الصغيرة ، كانت هناك ضحكات متوترة عند إختيار الملابس، حديث طويل عن ترتيب المنزل، أسئلة حول التفاصيل التي لم يخطر بالبال لأي منهما من قبل، وحتى لحظات الصمت التي كانت أحيانًا أكثر ثراءً من الكلام نفسه ، كل لحظة كانت تترك أثراً، كل نظرة كانت تقول أكثر من ألف كلمة، وكل لمسة كانت تزرع أملًا جديدًا في قلب الآخر.

حفل الزفاف، على بساطته، كان بمثابة ولادة جديدة لحياة مشتركة ، لم يكن الفرح مجرد موسيقى وصخب، بل كان شعوراً متصاعداً إحساساً بالحياة التي تبدأ الآن، إحساسًا بالمسؤولية ووعودًا صامتة تُردد في الداخل: « سنحمي بعضنا، سندعم بعضنا سنسعد بعضنا مهما كانت الظروف »... في تلك اللحظات، لم

يكن علي وملاذ مجرد زوج وزوجة، بل كانا شريكين في رحلة مصيرية، رحلة بناء حياة مليئة بالحب، الاحترام، والشغف الذي لا يخفت.

بعد الزفاف، جاء الواقع، الواقع الذي بدأ يختبر قوة العلاقة لم تكن الحياة مجرد لحظات رومانسية، بل كانت سلسلة من القرارات اليومية، من ترتيب المنزل إلى تحضير الطعام، من إدارة الوقت إلى التوافق على المصروفات، ومن مواجهة ضغوط العائلة إلى التأقلم مع المجتمع ، ومع كل تحدٍّ، كان كل منهما يكتشف جانباً جديداً من الآخر، جانباً يحتاج إلى الصبر، إلى التفاهم، إلى التسامح، إلى القدرة على رؤية الحياة من منظور الآخر ، لياليهما الأولى كانت مليئة بالكلام الطويل عن الأحلام والمخاوف، عن الحياة السابقة وما تركته من أثر، عن الأسرة الأصدقاء، وحتى عن العالم الخارجي بكل صخبه.

كل حديث كان يخلق مساحة أوسع للثقة، لكل كلمة وزنها، لكل صمت معناها ومع كل يوم، بدأت ملاذ تكتشف قوة علي في مواجهته للصعاب، وعلي يكتشف مدى حنان ملاذ وعمق تفهمها، حتى صارت اللحظات الصغيرة – مثل كوب شاي في

الصباح، لمسة على الكتف أثناء الحديث، إبتسامة في منتصف النهار – شعارات صامتة لحياة جديدة ولحب متين ، ومع مرور الأيام، بدأت العلاقة تنمو بشكل غير مرئي للآخرين ، ولم يعد الحديث عن الحب مجرد كلمات أو شعارات، بل أصبح ممارسة حقيقية: التحمل عند الغضب، التقدير عند التعب، الدعم عند الخوف، والإحتفال عند النجاحات.

كان كل منهما يكتشف أن الحب الحقيقي ليس مجرد شعور، بل قرار يومي، أفعال صغيرة مستمرة، إختيارات متكررة تجعل من الحياة المشتركة قوة لا تهتز ، الأسبوع الذي يلي العقد يختلف عن أي وقت آخر، لأنه يمثل الإنطلاق نحو المستقبل.

كل لحظة تحمل في طياتها وعوداً غير معلنة: وعد بأن يسعى كل منهما لإسعاد الآخر، وعد بأن يكون الصديق والرفيق والمساند وعد بأن يبني معاً أسرة تحتضن الأمان الحب، والنمو ، وقد أدرك علي وملاذ أن هذا الأسبوع القصير كان مجرد البداية وأن رحلتهما الحقيقية تبدأ من هذه اللحظة، من هذه النظرات ، وهذه الهمسات التي تتجاوز الكلمات لتصبح شعورًا دائمًا ، ومع مرور الأسابيع، بدأت الحياة تكشف لهما أكثر ، تعلم علي كيف يكون

أكثر صبراً، كيف يستمع أكثر مما يتحدث، وكيف يشارك ملاذ مسؤولياتها وأحلامها ، وملاذ، من جانبها تعلمت أن القوة ليست في السيطرة، بل في الشراكة، وأن الحب الحقيقي هو قدرة على تقديم المساحة للآخر كي ينمو، بينما تحافظ العلاقة على توازنها هذه القصة ليست مجرد حدث عابر في حياة شخصين، بل هي شهادة على أن الزواج، حين يُعاش بالوعي والنية الصادقة، يصبح مدرسة للحياة نفسها ، إنه اختبار للصبر، اختبار للوفاء، إختبار للإبداع في الحب اليومي إختبار للقدرة على تحويل كل يوم إلى مناسبة للاكتشاف المتبادل للفرح المشترك، وللأمان العاطفي الذي يجعل كل منهما يشعر بأن الآخر هو ملاذه الحقيقي، ليس فقط بعد العقد، بل في كل لحظة تمر في حياتهما.

إن علي وملاذ بعد أسبوع من العقد لم يكونا مجرد زوجين جديدين، كانا رمزاً لكل ما يمكن أن يكون عليه الحب حين يُعاش بإدراك ومسؤولية ، كل يوم، كل قرار، كل تحدٍ، أصبح تجربة مشتركة تبني علاقة قوية، علاقة تتجاوز الشكوك والضغوط، علاقة تصنع السعادة من بساطة اللحظات، علاقة تتحول معها الحياة نفسها إلى نصّ طويل من الأمان والفرح والمغامرة.

في النهاية، تظل اللحظات الأولى بعد العقد أكثر من مجرد ذكريات،هي وعد مستمر بأن الحب ليس شعوراً مؤقتاً، بل ممارسة يومية، هو بناء مستمر، هو رحلة مستمرة لا تتوقف عند توقيع ورقة أو مراسم، بل تستمر في كل إبتسامة، في كل لمسة، في كل كلمة، في كل صمت يُعاش بصدق.

علي وملاذ، بعد أسبوع من العقد، لم يبدآ حياتهما فقط، بل فتحا بابًا لمغامرة طويلة جدًا، مليئة بالحياة، مليئة بالحب، ومليئة بالقوة التي يولدها الالتزام المشترك والإيمان بأنهما معًا أقوى من أي تحدٍّ يطرأ على طريقهما.

جلس علي وملاذ في البيت التي جهّزاها معًا، أشعة الشمس الذهبية تتسلل من النافذة، تضيء اللوحات الصغيرة على الجدران وتنعكس على وجهيهما بابتسامة هادئة.

– علي سأل ملاذ وهو يلتقط كوب الشاي من الطاولة ، هل تعتقدين أننا مستعدون حقاً لكل شيء...؟

إبتسمت ملاذ وضغطت على يده برفق: ربما لا شيء في الحياة يجعلنا جاهزين تماماً...لكننا سنجد طريقنا، كما فعلنا دائماً راحا يتحدثان عن تفاصيل اليوم : ترتيب المكتب، إستعداداتهم لمستقبل

الطفل، الروتين الجديد الذي سيجمع بين العمل والحياة العائلية دخل علي وملاذ المنزل الذي جهّزاه معاً، كان ركناً صغيراً دافئاً مليئاً بالضوء، يعكس جزءاً من شخصيتهما وروحهما المشتركة كل شيء فيه مرتب بعناية: الكتب مصطفة على الرفوف اللوحات الصغيرة التي رسمها علي معلقة على الحائط، النباتات الصغيرة على النوافذ، وقهوة الصباح التي تنتظر روتينهما اليومي جلسا على الأريكة، ملاذ تضع قدميها بهدوء على سجادة صغيرة، وعلي يراقب إنعكاس الضوء على الطاولة الخشبية القديمة – علي سأل ملاذ بصوته هادئ لكنه يحمل بريق الحماس والقلق معاً هل تعتقدين أننا جاهزون حقاً لكل شيء...؟

إبتسمت ملاذ، وضغطت على يده برفق: الحياة لا تجعلنا جاهزين أبداً... لكنها تعطينا دائماً فرصة لنكون أفضل ما نستطيع أخذ علي نفساً عميقاً، وإبتسم لنفسه قبل أن ينظر إليها: وأنا أعلم أن كل شيء سيكون أفضل طالما كنا معاً.

قاما بترتيب المنزل معاً، كل مهمة صغيرة تتحول إلى لحظة من الفرح : تعليق ستارة، ترتيب الكتب، إختيار ألوان الوسائد، حتى وضع النباتات على الشرفة ، كل شيء كان يبدو عاديًا، لكنه كان

في الحقيقة بداية لحياة جديدة، صفحة بيضاء يملأانها سوياً بحب صادق وصبر متبادل ومرت عدة أشهر، وكل يوم كان يحمل لهما مفاجأة جديدة في روتينهما المشترك.

الفجر الجديد

نهار يولد من صمت الليل

عند انبلاج صباحٍ جديد ، شعرت ملاذ بشيء مختلف، شعور خافت لكنه واضح: دوار خفيف، إحساس بالحرارة والبرودة في آن واحد وإبتسامة ترتسم على وجهها رغم التعب.

ذهبت إلى علي وهي تمسك بيده بحذر: علي... أظن أن لدينا شيئاً جديداً... إبتسم علي بإبتسامة لا تخلو من الدهشة والحذر نظراته تتأرجح بين القلق والفرح: ماذا تعنين...؟

– ملاذ أنا... حامل!

سقطت الكلمات ببطء، لكنها أحدثت صدىً هادئاً في المكان جلس علي بجانبها، أخذ يديها بين يديه، شعر بحرارة قلبها تنتقل إلى قلبه، وعيناها تتأملان عينيه في إنتظار رد فعل.

– قال علي بصوت إرتجف قليلاً، لكنه كان صادقاً بالكامل هذا أفضل خبر سمعته في حياتي كلها ، إبتسمت ملاذ، ووضعت رأسها على كتفه بهدوء، وكأنها تقول بلا كلمات : « معك كل شيء يصبح أفضل » لقد جاء اليوم الذي أصبحت ملاذ حاملاً

كانت لحظة هادئة لا صراخ فيها ولا دموع، بل نظرات متبادلة وإبتسامات تحمل معاني أعظم من الكلمات.

جلسا سوياً يمسكان أيديهما ويشعران بأن الحياة تبدأ فصلاً جديداً، فصلاً سيمتد عبر سنوات من الحب والإهتمام، مع تحديات الحياة التي سيواجهانها معاً، وكل ذلك بروح واحدة ونوايا صافية.

مرت الأشهر، وبدأ الزوجان يستعدان لمجيء الطفل، كل شيء أصبح محور حياتهما : المنزل، الأسرة، روتين العمل، حتى اللحظات الصغيرة التي كانا يتبادلان فيها القهوة أو القصائد القصيرة.

أصبح علي يكتب قصائد صغيرة للطفل قبل ولادته، يسجلها في دفتر، ويرسم لوحات بألوان زاهية وكأنها رسائل صغيرة من قلبه : « لك ياصغيري ... قبل أن تعرف العالم... هذا الحب موجود بالفعل ».

ملاذ بدورها كانت تهتم بالتفاصيل الصغيرة، قراءة كتب الحمل ترتيب غرفة الطفل، اختيار الألعاب الصغيرة، وأحيانًا مجرد الجلوس بهدوء مع علي، يتحدثان عن الأحلام التي يحملانها له : مستقبل

صغير مليء بالحب، الحرية، والقيم التي يؤمنان بها ، وفي يوم مشمس من بداية الصيف، دخل علي وملاذ المستشفى أجواء هادئة لكنها مشبعة بالتوتر والإنتظار ، أصوات الأجهزة الطبية خطوات الممرضات، وحركة الهواء في الممرات كانت كلها جزءاً من المشهد ، جلس علي بجانب ملاذ، يمسك يديها بحنان، يهمس لها: ملاذ كل شيء سيكون على ما يرام...أنا معك.

إبتسمت ملاذ، وغمضت عينيها للحظة، تشعر بالطمأنينة بوجوده : أعلم...ان كل شيء سيكون أفضل لأنك هنا ثم جاءت اللحظة التي بدأ فيها صوت البكاء الأول للطفل ، قلب علي تدفق بالحب الذي لم يعرفه من قبل، عينا ملاذ إمتلأت بالدموع وابتسامتهم كانت لحظة الإنتصار على كل تعب وصبر طوال الأشهر الماضية.

– إنه يوسف...

– قالت ملاذ بصوت مرتجف، ويدها تمسح دموعها على وجنتيه أحتضن علي طفله يوسف بلطف، شعر بوزنه الصغير، دفء جسمه، وأهتزت روحه بشعور لم يختبره سابقاً : الحياة بدأت من جديد، برابط أقوى من أي شيء، برابط الحب والصبر والأمل.

دخل علي وملاذ المنزل بعد خروجهما من المستشفى، أحضرا طفلهما يوسف ، وكانت حقيبته الصغيرة المليئة بالمستلزمات الطبية في حضن ملاذ، بينما مسك علي يديه الصغيرتين بحنان الغرفة التي أعدّوها لولادة الطفل كانت دافئة، مليئة بالضوء الطبيعي الذي يتسلل من النوافذ الكبيرة، ويعكس على الجدران البيضاء.

جلسا على الأريكة، ملاذ تتنفس بعمق بعد التعب الشديد وإبتسامة خافتة ترتسم على وجهها، بينما علي يجلس بجانبها يراقب الطفل الصغير، كل حركة فيه، كل نظرة، كل شهيق وزفير.

– لم أتخيل أبداً أن شعوراً كهذا يمكن أن يملأ القلب كله...

– همس علي، وعيناه لا تفارقان وجه يوسف .

إبتسمت ملاذ، وضعت يدها على صدر يوسف ، وكأنها تحميه من كل شيء: إنه جزء منا...كل شيء أصبح أجمل الآن

– قالت بهدوء لكن صوتها كان مليئاً بالحب والدهشة...مرت الأيام الأولى ببطء وسعادة وقلق معًا.

كل روتين كان يحمل تحديًا جديدًا : علي يستيقظ ليلاً ليغير حفاض يوسف، يحاول أن يهدئه عندما يبكي، ويغني له بصوت خافت كانت له نغمة خاصة بالبيت ملاذ تتأكد من كل شيء

ترتب الحليب، تنظف المكان، وتراقب نومه بدقة، تحس بكل حركة طفيفة تصدر منه وكأنها تنبض بحياة جديدة داخل قلبها.

جلسا معاً في إحدى الليالي الطويلة، علي يحمل يوسف على صدره، وملاذ تجلس بجانبه، يراقبان أنفاسه الصغيرة:

– هل تعلمين...؟

– قال علي بصوت منخفض.

– كل شيء في العالم أصبح مهماً الآن...حتى أصغر التفاصيل إبتسمت ملاذ، وضعت رأسها على كتفه، وقالت: وأنا أعلم... كل لحظة معه ستعلّمنا كيف نكون صبورين أكثر، كيف نحب أكثر، وكيف نفهم بعضنا أكثر – وأنا أعلم... كل لحظة معه ستعلّمنا كيف نكون صبورين أكثر، كيف نحب أكثر، وكيف نفهم بعضنا أكثر ، مرت الأسابيع، وبدأت الحياة تتشكل حول يوسف : علي يتنقل بين المكتب والمنزل، يحمل معه دفتر الرسم، ويضع على مرت الأسابيع، وبدأت الحياة تتشكل حول يوسف : علي يتنقل بين المكتب والمنزل، يحمل معه دفتر الرسم، ويضع على الطاولة رسومات صغيرة كتبها له، بينما يحاول أن يوازن بين مهامه المهنية ومسؤولياته الجديدة.

ملاذ تراقب كل تقدم في نمو يوسف ، تسجّل كل إبتسامة، كل حركة، كل صوت يخرجه، وتكتب ملاحظات صغيرة في دفترها الخاص.

كانت هناك لحظات صمت مشتركة بين علي وملاذ، ليست مجرد صمت بلا معنى، بل صمت مليء بالسلام الداخلي، بالإحترام المتبادل، وبالحب الصادق: علي يضع يداً على كتف ملاذ، يشير إلى يوسف وهو يبتسم : هل تعلمين...؟ هو يشبهك كثيراً، في عينيه، وفي هدوئه ملاذ تضحك بخفة، وتلمس يده : وهو يشبهك في كل شيء آخر... في حبه للحياة، وفي شغفه بكل شيء جديد الأيام المليئة بالمواقف الصغيرة

أول مرة يضحك يوسف : علي وملاذ جلسا على الأرض أمامه يضحكان معًا، وكل ضحكة كانت تحمل شعورًا بأن الحب الحقيقي يعيش في التفاصيل الصغيرة ، أول مرة يحبو يوسف : كان علي يراقبه من بعيد، قلبه يفيض بالفخر، وعيناه تلمعان بسعادة لم يعرفها من قبل.

أول يوم لملاذ في العمل بعد الولادة: علي احضرها إلى باب المنزل حمل يوسف بين ذراعيه، وقال لها :لا تقلقي ياملاذ...سأكون هنا عندما تعودين.

الحياة اليومية والتوازن بين العمل والأسرة بدأ علي وملاذ في وضع جدول جديد لحياتهما: الصباح: علي يحضر فنجان القهوة الى ملاذ، ثم يجهز نفسه للعمل ويقرأ سريعاً بعض الملفات قبل مغادرته الظهيرة : ملاذ تتصل به للإطمئنان على يوسف ، يجيبان على الهاتف بتبادل كلمات الحب والإطمئنان في المساء : يجلسان سوياً يقرآن الى يوسف، يحكيان له قصصاً صغيرة، وأحياناً يقرأ علي قصيدة كتبها خصيصاً له.

كل يوم كان يحمل لحظات جديدة، كانت تنسج رابطاً أعمق بينهم، رابطاً من الحب والإحترام والإهتمام اليومي حتى مع كل المسؤوليات، وأحياناً، يجلسان معًا قرب نافذة الغرفة، يشاهدان غروب الشمس ويوسف نائم بينهما، يشعران أن العالم كله أصبح مكاناً أفضل بوجوده ، كان الضوء البرتقالي يتسلّل ببطء عبر الزجاج، فيرسم على وجهيهما ظلالاً دافئة، كأن المساء يبارك تلك

اللحظة الصامتة تتداخل أنفاسهما مع أنفاسه الصغيرة المنتظمة فيتحوّل الصمت إلى موسيقى خفيّة لا يسمعها سواهما.

كانت يداهما تلتقيان فوق الغطاء دون قصد، لا بحثاً عن شيء بل تأكيداً خفيفاً على أن ما يجمعهما الآن أعمق من الكلمات يوسف، الصغير الغارق في نومه، كان يبدو كحلمٍ تجسّد بينهما كجسرٍ من الطمأنينة يمتدّ من قلبٍ إلى قلب.

خارج النافذة، كانت المدينة تمضي في صخبها المعتاد، سيارات تعبر، وأصوات بعيدة تتلاشى، لكن داخل تلك الغرفة كان الزمن يتباطأ، كأنه يمنحهما فسحة أطول ليحفظا هذه اللحظة في ذاكرتهما ، كانا يشعران أن الغروب ليس نهاية يوم، بل بداية وعدٍ جديد، وعدٍ بأن يكبرا معاً وأن يكبر يوسف بينهما محاطاً بهذا الدفء البسيط، وفي كل مساءٍ يشبه هذا المساء، كانا يدركان أن السعادة قد لا تكون حدثاً صاخباً، بل لحظة صافية كهذه : طفلٌ نائم، ونافذة مفتوحة على الضوء، وقلبان يكتشفان أن العالم، رغم كل شيء، يمكن أن يكون أجمل مما ظنّا...

نور العشق

شعاع يكشق عشق القلوب

مرت الأيام الأولى بعد ولادة يوسف بسرعة وببطء في الوقت نفسه، كل يوم يحمل تحدياته وفرحه الخاص وكان علي وملاذ يعيشان حالة جديدة من الوعي والإهتمام حيث أصبح كل شيء في المنزل مرتبطاً بيوسف : حركاته، بكاؤه نومه، حتى تنفسه البطيء في الليل.

أستيقظ علي قبل الفجر، يحضّر القهوة، ينظر إلى النافذة التي تتسلل منها أشعة الشمس الأولى جلس على الأريكة، يوسف ينام في سريره الصغير بجانبه وملاذ لا تزال تغط في النوم، مع شعور بالراحة بعد ليل طويل.

أخذ علي دفتره، وبدأ يرسم لوحة صغيرة، مستلهماً من وجه يوسف النائم : خطوط ناعمة، ألوان هادئة، روح بريئة على القماش ثم دخلت ملاذ بهدوء، تبتسم لرؤيته: لا أصدق كم تبدو سعيداً كل صباح، – قالت.

كل صباح أشعر أن الحياة بدأت من جديد... مع يوسف.

– أجاب علي وهو يبتسم دون أن يرفع رأسه عن الرسم كانت الأيام مليئة بالتفاصيل الصغيرة التي تحفر روابط عميقة بينهما : أول بكاء صاخب الى يوسف : علي يركض لتهدئته، ملاذ تحاول تجهيز الحليب بسرعة، ويوسف يصرخ بصوت مرتفع، وعلي يهمس له بصوت هادئ:كل شيء سيكون بخير...أنا هنا بعدها يضحكان معاً من الموقف، كل منهما يشعر أن التعاون يجعل كل شيء أسهل.

أول حركة حبو الى يوسف : ملاذ تتنفس بعمق، وعلي يمسك الكاميرا ليصوّر اللحظة، بينما يوسف يحاول الزحف ببطء.

– قال علي بحماسة.

– إنظري ياملاذ...إنه يحاول...!

– نعم ياصغيري...

– قالت ملاذ بإبتسامة فخورة.

ملء البيت بالفرح والقصص فكل لحظة كانت مليئة بالمشاعر وكل ابتسامة تحمل دفء العائلة، وتعطي علي وملاذ شعورًا بالاكتمال وبالرغم من كل المسؤوليات الجديدة، علي حاول أن يحافظ على عمله:يذهب إلى المكتب لساعات قصيرة، يراجع

الملفات المهمة ويعود إلى المنزل قبل أن يشعر يوسف بالضيق ملاذ تتنقل بين المنزل والعمل، تحرص على أن تقضي وقتًا كافيًا مع علي وتربية يوسف وتحافظ على روتينها المهني وفي إحدى الأمسيات جلس علي في غرفة الجلوس، يوسف بين ذراعيه، وملاذ تحضّر له الحليب.

-قال علي بصوت هادئ.

- هل تعرفين ياملاذ...؟

- كل شيء يبدو أسهل معك بجانبي...حتى أصعب الليالي إبتسمت... ملاذ، وضغطت على يده برفق : ونحن نعلم أننا فريق واحد...سنواجه كل شيء معاً لحظات رومانسية صغيرة حتى مع كل الضغوط، لم يفقد علي وملاذ حميمية حياتهما: علي يترك رسائل صغيرة الى ملاذ على الطاولة : « صباح الخير... أحبك...نحن معاً » ملاذ تترك له كوب القهوة كما يحبها، مع إبتسامة تخفي وراءها كل الحب والتعب أحياناً، يجلسان معاً قرب نافذة الغرفة، يراقبان غروب الشمس يوسف نائم بينهما، يشعران أن العالم كله أصبح مكاناً أفضل بوجوده ولا تخلو الحياة اليومية من لحظات مرحة : علي يلبس يوسف الحفاض بطريقة خاطئة وفي

الصباح يضحكان هو وملاذ على ذلك، ملاذ تحاول أن تطبخ الغداء بينما يوسف يبكي، علي يركض لإنقاذ الموقف بطريقة مضحكة أحياناً في صمت الليل يجلس علي وحده، ينظر إلى يوسف نائماً ويكتب قصيدة صغيرة في دفتره : « يوسف...ياصغيري، كل يوم أراك فيه، أتعلم معنى الصبر، معنى الحب النقي، معنى الحياة الحقيقية... » وملاذ، من جانبها تكتب في دفترها الخاص عن لحظات اليوم : كيف تعلمت أن تكون صبورة...؟

كيف أصبح قلبها أكبر من كل همومها...؟

وكيف أن الحب الحقيقي يظهر في التفاصيل الصغيرة...؟

في كل لمسة، كل إبتسامة، كل نظرة بهذه الطريقة يمكننا توسيع كل أسبوع من حياة يوسف بأحداث يومية مفصلة، مواقف كوميدية لحظات رومانسية تفاصيل المنزل، الطبيعة المحيطة، وحتى تفاصيل الطقس والروتين اليومي، بحيث نضيف بسهولة آلاف الكلمات لكل أسبوع في يوم خريفي هادئ، جلسوا الثلاثة قرب نافذة المنزل، حيث كانت الأشجار تتمايل برفق وكأنها ترقص على أنغام الريح الخفيفة ، الضوء الذهبي المنساب بين الأغصان كان يرسم

على الأرض لوحة من الظلال المتشابكة، وكأن كل شعاع يحاول أن يروي قصة صغيرة عن الزمن، عن الإنتظار، وعن جمال اللحظات التي تُنسج في صمت.

يوسف نام بين ذراعي علي ، رخواً وآمناً، كما لو أن العالم كله قد اتفق على حمايته، وأن كل أصوات الحياة المؤلمة إبتعدت إلى الأبد رفع علي دفتره وقلمه، وأحس بشعور غريب يغمر قلبه، مزيج من الإمتنان والخوف، من السعادة العميقة والخشية من وداع اللحظة لكنه قرر أن يكتب، أن يحول هذا الشعور إلى كلمات تظل عالقة في الهواء، في أرجاء البيت، في كل زاوية من الروح.

بدأ يكتب آخر كلمات القصة، كلمات لم تكن مجرد نهاية قصة بل كانت تأملاً في الحياة نفسها، في جوهر الحب والعيش بصدق الحياة ليست مجرد مرور الأيام، وليست مجرد أحداث متتابعة... الحياة أعمق من ذلك، أعقد وأكثر نعومة...الحياة هي الحب الصافي الذي لا يعرف الأنانية، الحب الذي يفيض من القلب ليصل إلى الآخرين دون شروط أو توقعات، الحب الذي يقيم فينا صرح الأمان والطمأنينة ، الحياة هي الصبر، على الذات والآخرين، وعلى تقلبات الأيام والمواقف التي تبدو أحياناً قاسية

بلا سبب والصبر هو الجسر الذي يعبر بنا فوق نيران الألم، هو اليد التي تمسك بنا حين يختفي كل شيء آخر.

الحياة هي إحترام الآخر كما هو، بلا محاولة لتغييره، بلا فرض للآراء، بلا حدود تعيق التواصل والإحترام هو أن ندرك أن لكل روح قيمتها، لكل قلب حرمة لا يمكن المساس بها والسكينة...هي الغيمة التي تتوقف عندها الروح لتتنفس، هي الفضاء الذي يسمح لقلبك بأن يهدأ وأن يسمع صوته الداخلي، وأن يعرف أنه بخير مهما كانت الفوضى خارجك.

نحن، الثلاثة، أصبحنا هذا النور وكل ضحكة بيننا، كل دمعة وكل لحظة صمت...هو شهادة على الحب الذي بتيناه على روابط لا تعرف الانكسار مهما ابتعدت المسافات أو تغيرت الظروف نحن أصبحنا المكان الذي يحتضن السلام، نحن الحكاية التي تحكي عن الحب الحقيقي الذي لا يموت، الذي لا يختفي مع مرور الزمن، بل يتجذر في القلب ويضيء الروح، يعلّمنا أن نعيش بصدق، بحرية وانسجام مع أنفسنا ومع العالم من حولنا... رفع علي رأسه، نظر إلى ملاذ، ثم إلى يوسف، ورأى في عينيهما انعكاساً لنور داخلي أكبر من كل ما يمكن أن يراه أو يلمسه، نور

يحمل كل لحظات الحب، كل التضحيات الصامتة، كل الليالي التي جلست فيها الأرواح صامتة تتأمل بعضها البعض، كل الأيام التي اختبروا فيها الصبر والإحترام والسكينة معاً وإبتسموا، إبتسامة لا تحتاج إلى كلمات، ابتسامة تقول كل شيء إبتسامة تثبت أن الحب الحقيقي موجود، وأن الروابط التي تصنعها القلوب لا يقدر عليها الزمن أو الغياب أو الألم.

جلسوا هناك، في ذلك الصمت المليء بالضياء، حيث أصبح العالم كله وكأنه يشهد على رباط أرواحهم، على نسيج الحب الذي جمعهم، على الطمأنينة التي تتغلغل إلى عروقهم، على الصفاء الداخلي الذي يجعل كل شيء آخر يبدو تافهًا أمام قيمة اللحظة كل شيء حولهم هادئ، كل شيء في الطبيعة يشاركهم السلام الأشجار تتمايل وكأنها ترقص في وئام مع أنفاسهم، الريح تهمس بسرها القديم، والشمس، وهي تنحدر ببطء نحو الأفق، تمد أشعتها الأخيرة لتقول لهم: كل شيء على ما يرام، كل شيء يضيء، كل شيء حي.

الحب...لم يكن مجرد كلمة في دفتر، بل أصبح وجوداً ملموساً في كل لمسة، في كل همسة، في كل نظرة، في كل دمعة وابتسامة

الصبر أصبح عزيمة متجددة، الإحترام أصبح لغة لا تحتاج إلى ترجمة، والسكينة أصبحت عرش الروح، حيث يمكن لكل قلب أن يجلس ويستريح بلا خوف، بلا ألم، بلا ضياع ، هكذا، في ذلك المساء الخريفي، فهموا أن الحياة ليست بما نملك ولا بما نفقد، بل بما نتركه في قلوب بعضنا، في ضحكاتنا، في دموعنا، في صمتنا العميق ، والحياة هي أن تكون حاضراً بالكامل بكل حبك، بكل صبرك بكل احترامك، بكل هدوئك.

الحياة هي أن تجعل من نفسك نورًا، ومن تحب نوراً، وأن تعرف أن هذا النور لا يزول، وأنه يضيء حتى في أحلك اللحظات ، رفع علي القلم عن الصفحة، وأحس برفق كبير يغمره وكأن الكلمات التي كتبها أصبحت جزءًا من الهواء، جزءاً من البيت جزءًا من الروح نفسها ، ونظر مرة أخيرة إلى ملاذ ويوسف ورأى في عيونهم انعكاساً للحياة التي يريدونها:حياة ،هادئة صافية، مليئة بالحب والصبر، والإحترام، وسكينة لا تنتهي إبتسموا جميعاً معاً ، شعور بالسلام الداخلي يغمرهم، شعور بأن العالم كله أصبح صامتًا ليس لإعادة الزمن، بل ليشهد على نور الحب الحقيقي وعلى رباط الأرواح الذي لا ينقطع أبداً، والذي سيظل مضيئاً مهما تغيرت

الأيام، مهما أبتعدوا عن بعضهم البعض مهما واجهتهم الرياح العاتية، الحب الحقيقي يبقى يتجذر ويعلمهم كيف يكونون أحراراً في حبهم، صادقين في حياتهم وسعداء بوجودهم معاً... الحب الحقيقي لا يمرّ كنسمة عابرة، ولا يُولد ليذبل عند أول ريح، بل يبقى... يتجذّر في الأعماق كما تتجذّر الشجرة في تربتها، يشتدّ عوده مع الأيام، وتزداد أغصانه امتدادًا كلما تعرّض لاختبار هو لا يعلّمهم التعلّق الأعمى، بل يعلّمهم كيف يكونون أحرارًا في حبّهم، لا يقيّد أحدهم الآخر، ولا يخشى أحدهم أن يكون على طبيعته.

في الحب الحقيقي، لا تُفرض الأقنعة، ولا تُخفى العيوب خلف الكلمات المنمّقة يتعلّمون أن يكونوا صادقين في قلوبهم، واضحين في مشاعرهم، وأن يقولوا ما يشعرون به دون خوف من خسارة لأن الثقة تصبح أرضهم المشتركة، والصدق هو الجسر الذي يعبرون عليه نحو بعضهم كل يوم من جديد.

هو حبّ يمنحهم مساحة للنمو، فلا يذيب أحدهم في الآخر، بل يجعل كلًّا منهما أكثر اكتمالًا بذاته، وأكثر إشراقًا بحضور الآخر يعلّمهم أن السعادة ليست في التملّك، بل في المشاركة، ليست في

السيطرة، بل في الطمأنينة فيضحكون معًا، ويصمتون معًا ويواجهون العالم وقلوبهم متآزرة لا متصارعة ومع مرور الوقت، لا يصبح الحب مجرد شعور، بل يصبح وعيًا واختيارًا متجددًا: أن يبقوا، أن يتفاهموا، أن يغفروا، وأن يتمسّكوا بتلك الجذور التي نمت بصبر وهكذا، يصبح وجودهم معًا مصدر سكينة لا قلق، وملاذًا لا معركة، وطريقًا يمشونه جنبًا إلى جنب بحريةٍ كاملة... وقلوبٍ صادقة... وفرحٍ لا يحتاج إلى تفسير.

صدر للمؤلف

صدرت للمؤلف رافد حميد فرج القاضي المؤلفات الآتية :

1- موسوعة الحقائق الساطعات ، كتاب في علم النسب، الطبعة الأولى، 2013 م ، مطابع المستقبل ، بيروت – لبنان.

2- الحسن راية السلام ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

3- الحسين شجرة الشهادة ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

4- رسالة الحقوق للامام زين العابدين والاعلان العالمي لحقوق الانسان « دراسة مقارنة » كتاب في حقوق الانسان ، الطبعة الأولى، 2015 م ، مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

5- مملكة النور ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2015 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

6- الأحمد الخامس، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2016 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

7- أوتار الرسالة ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

المحتويات

أبواب الصبر..... 5.
أوركسترا الأزقة..... 14.
نوافذ الروح..... 24.
نبض الارقام..... 31.
همس المشاعر..... 44.
صدى اللحظات..... 57.
فتاة الروح..... 68.
الضوء الباقي..... 79.
وجع الغياب..... 89.
ظل النخلة..... 104.
ما لم ينته..... 113.
إعلان الروح..... 128.

ملتقى القلوب..... 142.

الفجر الجديد..... 155.

نور العشق..... 163.

صدر للمؤلف..... 173.

المحتويات..... 174.